المنقذ من الضلال
والمفصح بالأحوال

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠-٥٠٥هـ)

دار المنهاج

المنقذ من الضلال

والمفصح بالأحوال

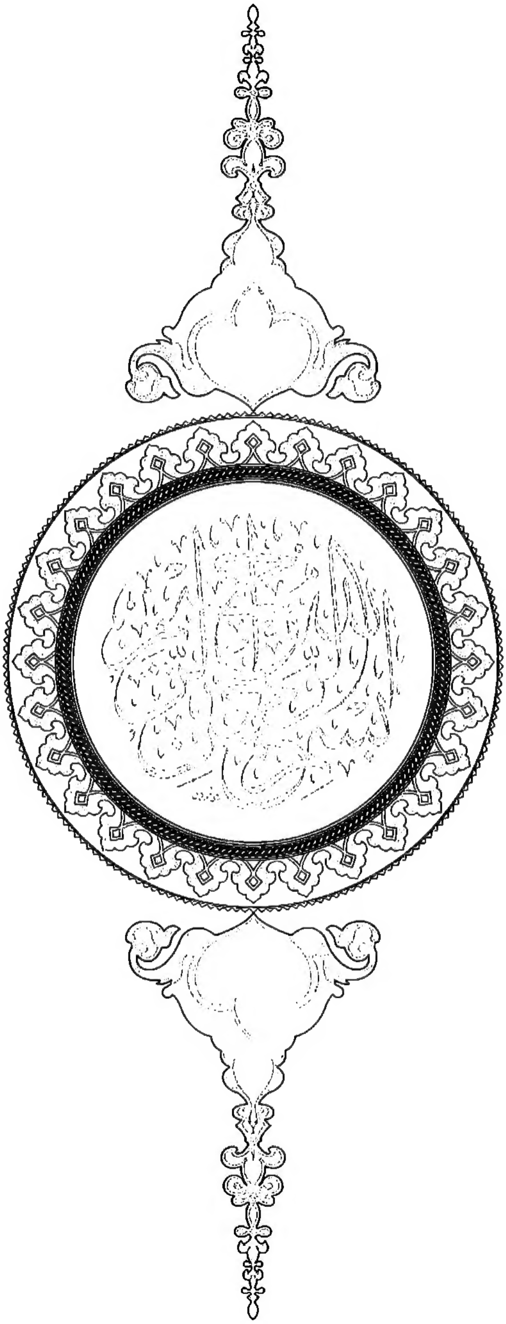

المنقذ من الضلال

والمفصح بالأحوال

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠-٥٠٥هـ)

تشرفت بخدمته والعناية به

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

دار المنهاج

الطبعة الأولى ـ الإصدار الثاني
١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

اسم الكتاب : المنقذ من الضلال
المؤلف : الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)
الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات
موضوع الكتاب : سيرة ذاتية ، عقيدة
مقاس الكتاب : (٢٤ سم)
تصنيف ديوي الموضوعي : (٩٢٢ ـ ٢٤٠)

عدد الأجزاء : (١)
عدد المجلَّدات : (١)
نوع الورق : شاموا فاخر
نوع التجليد : مجلَّد كرتوناج
عدد الصفحات : (١٧٦ صفحة)
عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأيِّ شكلٍ من الأشكال ، أو نسخه ، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكِّن من استرجاع الكتاب أو أي جزءٍ منه ، وكذلك لا يسمح بترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبقاً من الناشر .

9 789953 498379

الرقم المعياري الدولي
ISBN: 978 - 9953 - 498 - 37 - 9

دار المنهاج
لبنان ـ بيروت
هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب
عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين
عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

جدة
مكتبة دار كنوز المعرفة
هاتف 6570628 ـ 6510421

مكة المكرمة
مكتبة الأسدي
هاتف 5570506 ـ 5273037

مكة المكرمة
مكتبة نزار الباز
هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939

المدينة المنورة
دار البدوي
هاتف 0503000240

المدينة المنورة
مكتبة الزمان
هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226

الطائف
مكتبة المزيني
هاتف 7365852

الدمام
مكتبة المتنبي
هاتف 8344946 ـ فاكس 8432794

الرياض
دار التدمرية
هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130

الرياض
مكتبة الرشد
هاتف 2051500 ـ فاكس 2253864

الرياض
مكتبة جرير
وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها
هاتف 4626000 ـ فاكس 4656363

الرياض
مكتبة العبيكان
وجميع فروعها داخل المملكة
هاتف 4654424 ـ فاكس 2011913

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

MEGASTORE

فيرجن وفروعها في العالم العربي

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت

هاتف 417130 ـ فاكس 418130

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق ـ المنامة

هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي

هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري ـ دبي

هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي

هاتف 3339998 ـ فاكس 3337800

دولة الكويت

مكتبة دار البيان ـ حَوَلي

تلفكس 22616490 ـ جوال 9952001

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي

هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

جمهورية مصر العربية

دار السلام ـ القاهرة

هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز ـ القاهرة

هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم ـ بيروت

هاتف 785107 ـ فاكس 786230

مكتبة التمام ـ بيروت

هاتف 707039 ـ جوال 03662783

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء

هاتف 0522853562 ـ فاكس 0522854003

دار الأمان ـ الرباط

هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

دولة قطر

مكتبة الثقافة ـ الدوحة

هاتف 44421132 ـ فاكس 44421131

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس ـ عمّان

هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق

هاتف 2235402 ـ فاكس 2242340

جمهورية العراق

مكتبة دار الميثاق ـ الموصل

هاتف7704116177 ـفانوس7481732016

جمهورية الجزائر

دار البصائر ـ الجزائر

هاتف 021773627 ـ فاكس 021773625

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

ماليزيا

مكتبة توء كنالي ـ كوالا لمبور

هاتف 00601115726830

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

انكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف0212638163 3ـفاكس0212638170 0

الهند

مكتبة الشباب العلمية - لكناؤ

هاتف 00919198621671

جميع إصداراتنا متوفرة على

نيل وفرات كوم

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

Furat

فرات

Furat.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

فإنْ كُنتَ في زهدِ الأئمةِ راغباً		فوطِّنْ علىٰ أنْ ترتكبْكَ الوقائعُ
بنفسٍ وَقُورٍ عندَ كلِّ كريهةٍ		وقلبٍ صَبُورٍ وَهْوَ في الصدرِ قانعُ
لسانُكَ مخزونٌ ورأسُك مُلجَمٌ		وسرُّكَ مكتومٌ لدى الربِّ ذائعُ
وذكرُكَ مغمورٌ وبابُكَ مغلَقٌ		وثغرُكَ بسَّامٌ وبطنُكَ جائعُ
وقلبُكَ مجروحٌ وسُوقُكَ كاسدٌ		وفضلُكَ مدفونٌ وطعنُكَ شائعُ
وفي كلِّ يومٍ أنتَ جارعُ غُصَّةٍ		منَ الدهرِ والإخوانِ والقلبُ طائعُ
نهارُكَ شُغْلُ الناسِ من غيرِ مِنَّةٍ		وليلُكَ شوقٌ غابَ عنه الطَّلائعُ
فدونَكَ هـٰذا الليلَ خذه ذريعةً		ليومٍ عَبُوسٍ عزَّ فيه الذَّرائعُ

الإمام الغزاليّ

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مُولي النعم ، ودافع النقم ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد العرب والعجم ، وعلىٰ آله وأصحابه أولي الهمم ، ومن تبعهم وبلَّغ عنهم حتىٰ غدا كالعَلَم ، وجميع المسلمين من سائر الأمم .

وبعد :

فإن لله عز وجل المنّةَ علىٰ هٰذه الأمة : بأن جعل فيها علىٰ رأس كل مئة سنةٍ مَنْ يُجدِّد لها أمر دينها[١] ؛ فمنهم الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز ، ومنهم الإمام الشافعيّ ، ومنهم الإمام أبو الحسن الأشعريّ ، ومنهم الإمام أبو بكر الباقلانيّ ، وعلىٰ رأس المئة الخامسة يتصدَّر حجة الإسلام الغزاليّ ، وفيه يقول الحافظ السيوطيّ :

والخامسُ الحبرُ هو الغزاليْ وعدُّه ما فيه من جدالِ

ذٰلك الحبر الجليل الذي كان عزمه وهمته إحياء السنن ونشرها ، والتنبيه على البدع ومحدثات الأمور ومحوها ،

(١) رواه أبو داوود (٤٢٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ومقارعة أهل الضلالات بالحجج والبينات ؛ مع انكبابه على التصنيف والمداومة على التدريس .

وكيف لا يحمل لواء هٰذا التجديد ؛ وهو تلميذ إمام الحرمين أبي المعالي الجوينيّ ، نهل من علومه ، حتىٰ غدا في حياة شيخه عَلَماً يُشار إليه بالبنان ؟!

وشهد له شيخه بأنه قد فاق أقرانه ، وبدأ بالتصنيف ، وعرض تصنيفه علىٰ شيخه ، فأثنىٰ عليه ، ثم بعد وفاة شيخه اختير للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٨٣ هـ) .

ولما ظهرت الباطنية والفلاسفة ، وشاعت أفكارهم وتلبيساتهم بين المثقفين والمشتغلين بعلوم الشريعة ، ونالت حظها من الرواج ، وتغلغلت شبهاتها في مجالسهم ، ودخلت في تضاعيف كتبهم ، وفي ثنايا السطور . . انبرى الإمام حجة الإسلام ؛ ليدافع عن حقائق العلم والدين ، وليجلو صورته الناصعة لكل مريد ، فقرأ علوم الفلسفة حتىٰ غدا الإمامَ فيها ، فجمع أقوالهم في « مقاصد الفلاسفة » ، ثم بيَّن عوارها وخللها في « تهافت الفلاسفة » .

ولم يفتْهُ كشف المستور من عقائد الباطنية ، فألَّف « المستظهريّ » و« القسطاس المستقيم » في جملة كتب ورسائل تدل علىٰ سعة اطلاعه ، وعميق فهمه .

كتاب « المنقذ من الضلال »

هٰذا الكتاب هو خلاصة تجربة الغزاليّ ، وعصارة جهده المضني في طلب الحق والحقيقة ، ولا سيّما وقد حبَّرهُ مؤلفه في سِنيِّه الأخيرة ، بعد أن قطع المسافات والسنوات بين طلب العلم والتدريس ، ثم أعقبتها خلوةٌ انهلَّتْ عليه فيها أنوار الحق ، فاستضاءت بذٰلك سريرته ، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار ، وجمعنا وإياه في دار القرار .

سبب تأليف الكتاب

يبين الإمام في مقدمته : أنه ورد عليه سؤال يطلب سائله من الإمام غايةَ العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وحقائقها ، وبيانَ خلاصة علم التوحيد ، وما يمكن أن يستفيده منه الباحث عن الحق ، وبيانَ بطلان مذهب الباطنية أهل التعليم الذين قَصَروا الحق علىٰ تقليد الإمام ، وبيانَ طريق الفلسفة ، وبيانَ أن طريق التصوف هل هو المرضيُّ الموصل للحق والصواب ؟

ويبين أيضاً أن لسؤاله شقّاً آخر مهمّاً يطلب سائله سببَ صرف الإمام عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، ثم بيانَ الداعي إلىٰ نشر العلم بنيسابور بعد طول الانقطاع .

الجواب الشافي وفحوى الكتاب

لما لمس الإمام صدقَ السائل في الطلب ، وعلم حاجة الطلبة إلى الذوق الذي يترشح من الرسوخ في العلم ؛ فما راءٍ كمن سمعا . . سارع إلىٰ جوابه وقد صحَّح آنئذٍ النية ، فعرض له في المقدمة الجهد الذي بذله في تمحيص الأفكار ، ودراسة الفِرَق في سبيل دَرك الحقيقة ونشرها ، والذبّ عن السنة .

فعرَّف العلم الذي ينبغي الركون إليه ، والانصياع لأحكامه ، ثم عرَّج علىٰ ذكر طرق المضلِّلين ، الذين ينمِّقون ما جاء من الزيغ في كلامهم ، ويُزينونه بتمويهات الطرح العلميّ المتجرّد فيما يزعمون ، وبيَّن أن حقيقة منهجهم ما هي إلا سفسطة تقوم علىٰ جحد العلوم ؛ انطلاقاً من التشكيك في المحسوسات ، ثم محاولة تعميم هـٰذا التشكيك ؛ ليشمل الضرورات العقلية .

وبيَّن أنه كاد أن يتبنىٰ طريقتهم لولا أن الله تعالىٰ قذف في قلبه نور المعرفة ، وشرح صدره للتمسك بالضرورات العقلية ورفض التشكيك بها ، فاعتصم بذٰلك من داء التشكيك .

وخلص إلىٰ أن طلاب الحق محصورون في أربع فرق : متكلمون ، وباطنية ، وفلاسفة ، وصوفية .

فانبرىٰ يعرض هـٰذه الفرق تترىٰ ، يُبيِّن صوابها وعوارها ، وما لها ، وما عليها .

فبدأ بالمتكلمين ، وأبرز أهمية علم الكلام في تثبيت دعائم الدِّين ، والذب عن السنة ، ثم ذكر أسباباً جعلت علمَ الكلام غيرَ وافٍ بمقصوده ، ولا منيلاً لمطلوبه .

ثم بسط القول في علم الفلسفة ، وبيَّن أنه لم يُسبق إلى التعمق فيها ، ومعرفة أغوارها وغوائلها ، وأفرد فصلاً عدَّد فيه أصنافهم ، وبيَّن أنهم جميعهم تشملهم سمة الكفر ، دُهريّين ، وطبيعيّين ، وإلـٰهيّين .

ثم لخص مقالات مذهب الباطنية الذين يزعمون وجوبَ التعليم ، وحصْرَه في الإمام المعصوم ، وبيَّن أنه قرأ كتبهم ، وجمع شبههم حتىٰ أُنكر عليه ذٰلك ؛ خشيةَ رواج أفكارهم .

وأورد العديد من شبهاتهم وردَّها ، وذكر أنه أفرد في بيان فساد مذهبهم عدداً من الكتب ، آخرها « القسطاس المستقيم » .

ثم ختم هـٰذه الفرق بذكر طريق الصوفية ، وبيَّن أنها تتم بعلم وعمل ، وأن أوَّلها : تخليةُ القلب عما سوى الله تعالىٰ ، ومفتاحها : استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالىٰ ، وآخرها : الترقي في الدرجات العلا .

وذكر رحلته من الانغماس في علائق الدنيا ، والإقبال علىٰ علومٍ غير نافعة في طريق الآخرة ، وشهود إقبال الطلبة عليه ، والإشارة إليه بالبنان ، حتىٰ هاجر إلىٰ مكة والقدس ،

وحطَّ رحله في الشام معتكفاً بمسجدها ، حتىٰ منَّ الله تعالىٰ عليه ، فتبين أن العلم والذوق والإيمان ثلاث درجات ليس وراءها إلا الجهل .

ثم ختم كتابه بالتنبيه إلىٰ أهمية النبوة وخاصيتها ، وبيَّن حقيقتها ، وعدَّد أنواع الشك في النبوة ، ودلَّل علىٰ إمكانها ، ووجودها ، وبين أن طريق اليقين بنبوة شخص معين : إمّا بالمشاهدة أو بالتواتر .

ثم بيَّن سبب عودته لنشر العلم بعد تحرير النية والقصد لله تعالىٰ ، فآثر أن يقطع خلوته بعد أن غدا عليماً بالأدواء ، قادراً علىٰ وصف الدواء .

وذكر في الخاتمة أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بالنبوة ، وعلاج ذٰلك .

فلله درُّه ، كيف أوجز في رسالة صغيرة مقاصد العلم الشريف !! وأهدىٰ إلىٰ مَن بعده خلاصة تجربته مخلصاً ، فحُقَّ لكتابه أن يُسمىٰ من الضلال منقذاً !!

وفي الختام : نود أن ننبه بأن دار المنهاج كما اعتنت عنايةً فائقةً بكتاب « إحياء علوم الدين » وأبرزته ولأول مرة في تلك الحلل المرضية ، والمظاهر الفنية بالتحقيق العلمي

المميز . . فإنها أيضاً سلكت المنهج ذاته في كتابه هـٰذا ؛ بغية جذب المثقفين إلى النهل من هـٰذا المنهل المعين .

❁ ❁ ❁

ثم كان لنا بعد نفاد طبعات الإصدار الأول لهـٰذه السِّفْر المبارك . . عَوْد حميد ، ونظر جديد ، فضوعفت له الخدمة ؛ بمزيد من الضبط والتحقيق ، وشيء من التعليق ، واستدراكِ ما سبق به القلم في السالف ، وهو نزر يسير ؛ إتماماً للعناية ، وسعياً لتحقيق الغاية ، تلك التي حملناها علىٰ عاتقنا ، في تقديم الجديد المفيد .

ونحن بهـٰذا الصنيع نشير إلىٰ أنه يجب بذل الجهود في نشر كتب التراث ؛ لإخراجها بريئة من وصمة التصحيفات والتحريفات ، ولا سيما وقد طغت في هـٰذا العصر الأخطاء الفجة ، والتحقيقات السمجة ؛ التي هي بالجهل أشبه ، وهي مصيبة تتعاظم إذا كان الكتاب المحقق شرعياً !!

والله المستعان

غرَّة رجب الأصب (١٤٣٦ هـ) — الناشر

ترجمة
الإمام المجدِّد ، حجة الإسلام
محمد بن محمد بن محمد الغزالي
رضي الله عنه(١)

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)

هوَ الإمامُ حجةُ الإسلامِ زينُ الدينِ ، أبو حامدٍ ، محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدٍ الطُّوسيُّ الطَّابَرَانيُّ ، الشافعيُّ ، الغزاليُّ .

وُلدَ بطُوسَ سنةَ (٤٥٠ هـ) ، وتوفيَ أبوهُ وهوَ صغيرٌ ، وكانَ قدْ أوصىٰ بهِ وبأخيهِ أحمدَ إلىٰ صديقٍ لهُ صوفيٍّ ، فما لبثَ إلَّا يسيراً حتىٰ ضاقَتْ ذاتُ يدِهِ ؛ فأدخلَهُما المدرسةَ يتعلَّمانِ ويتقوَّتانِ .

شيوخ الإمام الغزالي

قرأَ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ على الشيخِ الإمامِ أحمدَ بنِ محمدٍ الراذَكانيِّ بطُوسَ .

---

(١) أهم مصادر الترجمة : « تاريخ دمشق » (٥٥/٢٠٠) ، « سير أعلام النبلاء » (١٩/٣٢٢) ، « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/١٩١) ، « إتحاف السادة المتقين » (١/٦) ، وقد ترجمنا للغزالي رحمه الله تعالىٰ ترجمة ضافية في طبعتنا لكتاب « إحياء علوم الدين » .

وسافرَ إلىٰ جُرجانَ ، فقرأَ على الشيخِ الإمامِ أبي القاسمِ الإسماعيليِّ ، وعلَّقَ عنهُ « التعليقةَ » .

ثمَّ قدمَ نيسابورَ ، ولازمَ الإمامَ أبا المعالي الجُوَينيَّ إمامَ الحرمينِ وتخرَّجَ بهِ ، وعرضَ عليهِ باكورةَ مؤلفاتِهِ « المنخولَ » في أصولِ الفقهِ .

ولمَّا توفيَ الجُوَينيُّ . . خرجَ إلى المعسكرِ ، وسمعَ بهِ الوزيرُ نظامُ الملكِ ، فقدَّمَهُ في مجلسِهِ ، وحَظِيَ عندَهُ بالقَبولِ ، وبرعَ في المناظرةِ حتىٰ ظهرَ اسمُهُ في الآفاقِ ، فأُرسلَ إلىٰ بغدادَ للتدريسِ في المدرسةِ النِّظَاميةِ بها سنةَ (٤٨٤ هـ) .

وفي أثناءِ تدريسِهِ ببغدادَ تفرَّغَ للتأليفِ ؛ فكثرَتْ مؤلفاتُهُ ، وعلَتْ شهرتُهُ ؛ حتىٰ أضحىٰ يُشارُ إليهِ بالبنانِ .

اعتزالُه الناس وتأليفه « الإحياء »

ثمَّ جاءَتْهُ السعادةُ الحقيقيةُ ؛ فسلكَ طريقَ الزهدِ والتألُّهِ ، وخرجَ منْ جميعِ ما كانَ فيهِ ، وتركَهُ وراءَ ظهرِهِ ، وقصدَ بيتَ اللهِ الحرامَ ، فخرجَ إلى الحجِّ سنةَ (٤٨٨ هـ) .

ثمَّ دخلَ دمشقَ سنةَ (٤٨٩ هـ) ، فأقامَ بها نحوَ عشرِ سنينَ ، أخذَ نفسَهُ فيها بالرياضةِ ، والمجاهدةِ والخلوةِ ، وألَّفَ فيها كتابَهُ النفيسَ « إحياءَ علومِ الدينِ » .

ثمَّ عادَ إلىٰ طُوسَ ، فاستدعاهُ فخرُ الملكِ إلىٰ نيسابورَ ، فدرَّسَ بها في المدرسةِ النِّظَامِيةِ .

ثمَّ تركَ التدريسَ ، وعادَ إلىٰ بيتِهِ موزِّعاً وقتَهُ بينَ تلاوةِ القرآنِ ، والتدريسِ والإفادةِ ، والنصحِ والإرشادِ ، إلىٰ أنْ وافتْهُ المنيةُ بطُوسَ سنةَ (٥٠٥ هـ) .

بعض مؤلفاته رضي الله عنه

تركَ الإمامُ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ مؤلفاتٍ مشهورةً لمْ يُسبَقْ إليها ، مَنْ تأمَّلَها . . علمَ فضلَهُ وقَدْرَهُ في فنونِ العلمِ ، وقدْ قيلَ : (أُحصيَتْ كتبُ الغزاليِّ التي صنفَها ، ووُزِّعَتْ علىٰ عمرِهِ ؛ فخصَّتْ كلَّ يومٍ أربعُ كراريسَ ، وذٰلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ) .

ومِنْ هٰذهِ المؤلفاتِ النافعةِ : « إحياءُ علومِ الدينِ » ، و« الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، و« مقاصدُ الفلاسفةِ » ، و« بدايةُ الهدايةِ » ، و« تهافتُ الفلاسفةِ » ، و« المنقذُ منَ الضلالِ » وهوَ كتابُنا هٰذا ، و« المنخولُ » ، و« المستصفىٰ » ، و« البسيطُ » ، و« الوسيطُ » ، و« الوجيزُ » ، و« الخلاصةُ »[1] ، و« إلجامُ العوامِّ » .

---

(١) وقد أكرم الله سبحانه وتعالىٰ دار المنهاج بخدمة بعض كتب هٰذا الإمام الجليل ؛ وأهمها : « إحياء علوم الدين » ، و« الخلاصة » ، و« الاقتصاد في ←

ومن ثناءات أهل العلم في حقه :

قال فيه شيخه الإمام الجويني : (الغزالي بحر مغرق) .

وقال الحافظ ابن عساكر : (كان إماماً في علم الفقه مذهباً وخلافاً ، وفي أصول الديانات) .

وقال الحافظ ابن النجار : (إمام الفقهاء على الإطلاق ، ورباني الأمة باتفاق ، ومجتهد زمانه) .

وقال الحافظ الذهبي : (الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان) .

وقال الإمام ابن السبكي : (حجة الإسلام ، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلىٰ دار السلام ، جامع شتات العلوم ، والمبِّرز في المنقول منها والمفهوم) .

رضي الله عنه ، وأكرم مثواه ، ونفع بعلومه

إنه خير مسؤول

← الاعتقاد » ، و« الأربعين في أصول الدين » ، و« منهاج العابدين » ، و« بداية الهداية » ، و« المنقذ من الضلال » ، و« أيها الولد » ، نسأل الله أن يتمم نعمته علينا بخدمة جميع كتب هٰذا الإمام العبقري رضي الله عنه .

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولىٰ : من مقتنيات مكتبة شهيد علي ، المحفوظة بالمكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (١٧١٢) .

وهٰذه النسخة ضمن مجموع مؤلف من (٧١) ورقة ، كتب في أوله : (مجموعة الرسائل فيها : « إلجام العوام عن علم الكلام » ، وكتاب « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » ، وكتاب « التفرقة بين الإسلام والزندقة » للإمام الغزالي) .

تبدأ من الورقة (٣٣) إلى الورقة (٥٧) ؛ فهي مؤلفة من (٢٥) ورقة .

عدد السطور في كل صفحة يتراوح بين (٢٢) إلىٰ (٢٧) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً .

في هامشها بعض الفروق والتصويبات ؛ مما يدلّ علىٰ أنها مقابلة مقروءة ، وقد ميزت العناوين فيها بنحو تطويل اللام في كلمة (القول) .

وناسخها : عبد المجيد بن الفضل القَزّازيّ الطبريّ ، وتاريخ النسخ : (٧) شوال سنة (٥٠٩ هـ) ، وخطها : نسخي جميل ، وتكاد تخلو من تحريف .

وقد رمزنا لها بـ (أ) .

النسخة الثانية : تقع ضمن مجموع ، تبدأ من الورقة (٥٦) إلى الورقة (٧١) .

فهي مؤلفة من (١٦) ورقة .

عدد السطور في كل صفحة (٢٧) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً .

وقد ميزت الآيات والأحاديث بوضع خط فوق متونها .

وفي هامشها تصويبات ولحوقات مصححة ، ومطالب معنونة تدل علىٰ أنها مقروءة ، لـٰكن فيها قليل تحريف .

وميزت العناوين بخط أسود عريض ، ووضعت إشارات فوق نحو (فصل ، الصنف ، فإن قلت ، فأقول ، والجواب) ، والناسخ وتاريخ النسخ مجهولان .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (ب) .

النسخة الثالثة : من محفوظات المتحف البريطاني بلندن ، قسم المجموعات الشرقية والمكتبة الهندية ، تحمل الرقم (١٨٧٤/أ) .

عدد أوراقها (٢٩) ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة (١٩) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً ، وخطها نسخي جيد .

آخرها : (بلغ من ظهر الاثنين ، السابع من ربيع الآخر ، عام ثلاث وعشرين وثمان مئة) .

ورمزنا لها بـ (ج) .

النسخة الرابعة : من مقتنيات مركز الملك فيصل بالرياض ، تحمل الرقم (١٤٣٧٣) ضمن مجموع .

عدد أوراقها (١٨) ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة (٢١) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (١١) كلمة تقريباً ، وفي هامشها بعض شروح للألفاظ الغريبة .

وتاريخ النسخ : في القرن الحادي عشر الهجريّ ، وخطها : فارسي جميل .

ورمزنا لها بـ (د) .

النسخة الخامسة : من مقتنيات المكتبة الوطنية بباريس ، تحمل الرقم (١٣٣١) ضمن مجموع ، منها نسخة في مركز الملك فيصل بالرياض .

تبدأ ضمن المجموع من الورقة (٢٥) إلى الورقة (٥٤) ؛ فهي مؤلفة من (٣٠) ورقة ، وفي هامشها بعض اللحوق والتصويبات وفروق النسخ ، مما يدل علىٰ أنها مقروءة ومقابلة .

عدد السطور في كل صفحة (١٧) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٨) كلمات تقريباً ، وخطها : نسخيّ حسن ، وهي مخرومة الآخر قبيل السبب الرابع ، وتاريخ نسخها مجهول .

وقد رمزنا لها بـ (هـ) .

النسخة السادسة : من مقتنيات مكتبة فيض الله أفندي ، المحفوظة في المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٢١٢٣) ضمن مجموع .

وهي ضمن مجموع حوىٰ رسائل للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

عدد الأوراق (١٣) ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة

(٢٣) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (١٢) كلمة تقريباً ، وميزت الأحاديث فيها بخط فوقها ، والعناوين بخط عريض وكبير ، وعليها تملكات ومطالعات و خطها : نسخي جيد ، وفيه ضبط كثير .

وقد رمزنا لها بـ (و) .

النسخة السابعة : من مقتنيات مكتبة حاجي بشير آغا ، المحفوظة بالمكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٦٥٠) .

وهي ضمن مجموع مؤلف من نحو ثلاث مئة وستين ورقة ، ضم رسائل للإمام الغزالي وغيره رحمهم الله تعالىٰ .

تبدأ ضمن المجموع من الورقة (٢٤١) إلى الورقة (٢٥٨) ؛ فهي مؤلفة من (١٨) ورقة .

عدد السطور في كل صفحة (٢٥) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (١٠) كلمات تقريباً ، وخطها : نسخي جيد .

وقد رمزنا لها بـ (ز) .

❋ ❋ ❋

منهج العمل في الكتاب

اعتمدنا في إخراج هٰذا الكتاب القيم المبارك علىٰ سبع نسخ خطية قيمة ، واتبعنا الخطوات الآتية :

ـ نسخ الكتاب ، ومعارضته علىٰ أصوله الخطية ، وإثبات الفروق التي لها أهمية ، ولا بد من الإشارة إلىٰ نسختين مهمتين من الأصول الخطية : الأولىٰ قريبة عهد من وفاة المؤلف ، والأخرىٰ تتابع عليها أهل العلم بالنظر فيها والملك لها ، والقصد والهدف أن يخرج الكتاب أقرب ما يكون إلىٰ مراد مؤلفه إن شاء الله تعالىٰ .

ـ تم اختيار عنوان الكتاب من النسخة الأقدم ؛ وهو : « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » ، مع العلم أن النسخ (ج ، هـ ، و) جاء العنوان فيها : « المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال » ، والأمر سهل ، والعبارتان متقاربتان .

ـ وضع الآيات القرآنية بالرسم العثماني ؛ تحاشياً عن الخطأ في رسمها أو ضبطها ، برواية حفص عن عاصم رحمهما الله تعالىٰ .

ـ تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية مع الإشارة إلىٰ راويها ومخرِّجها .

ـ ترصيع الكتاب بعلامات الترقيم بحسب المنهج العلمي المتبع في المركز العلمي لدار المنهاج .

ـ ضبط الكتاب كاملاً بالحركات الإعرابية ؛ ليسهل فهمه على الوجه اللائق .

ـ شرح بعض الألفاظ الغريبة والمشكلة .

ـ تقسيم نص الكتاب إلىٰ مقاطع ، وإضافة عنوانات مناسبة لهٰذه المقاطع علىٰ جوانبه ؛ ليسهل تناوله .

ـ ترجمة موجزة للمؤلف حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ، ومن أراد التوسع . . فلينظر ترجمته في كتاب « إحياء علوم الدين » ، طبعة دار المنهاج ؛ فهي جامعة ونافعة .

وأخيراً : فإننا لا ندعي الكمال ، وإنما نطمع أن نكون قد وُفِّقْنا في خدمة هٰذا الكتاب المبارك ، وما توفيقي إلا بالله .

راجين من القارئ الكريم غض الطرف عما سها عنه الطرف ، والتماس العذر لإخوانه ، وأن يعاملنا كما عوَّدنا بإحسانه ، وفضله وجوده وامتنانه .

والله وحده المسؤول : أن يكرمنا بالقبول ، وأن يرزقنا شفاعة الرسول ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(٢٨) جمادى الآخرة (١٤٣٣هـ)
(١٩) مايو ـ أيار (٢٠١٢م)

اللجنة العلمية
بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

صور المخطوطات المستعان بها في الكتاب

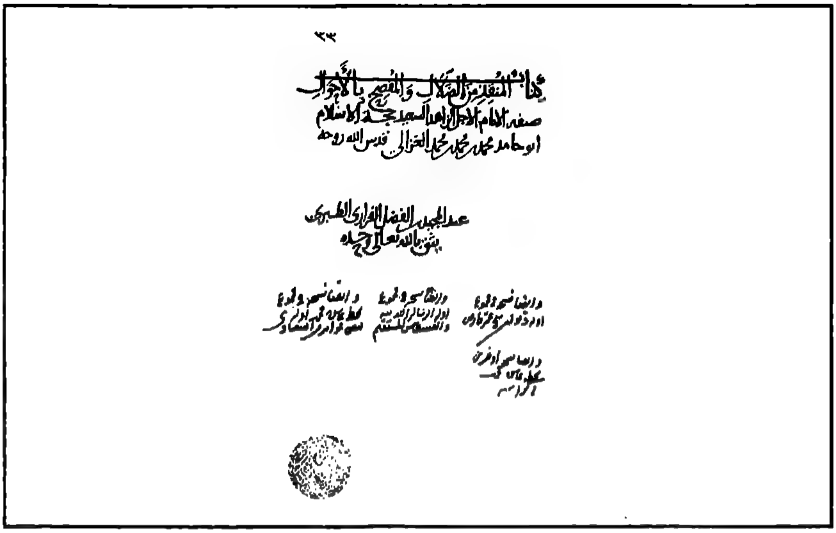
كتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال
صنفه الإمام الأجل الأوحد السعيد حجة الإسلام
أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه

راموز ورقة العنوان للنّسخة (أ)

راموز الورقة الأولى للنّسخة (أ)

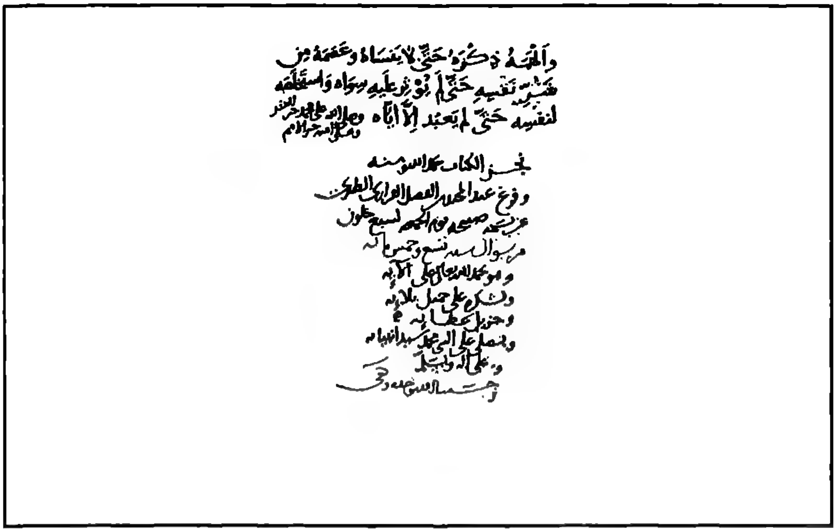
وألهمه ذكره حتى لا ينساه وعصمه من
شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه واستخلصه
لنفسه حتى لم يعبد إلا إياه وصلى الله على محمد خير البشر
وعلى آله خير الأنام

تم الكتاب بحمد الله ومنه

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

كتاب المنقذ من الضلال للإمام الهمام
والحبر البحر القمقام الإمام حجة الإسلام
محمد بن محمد بن محمد
ابن أحمد الطوسي الغزالي

راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

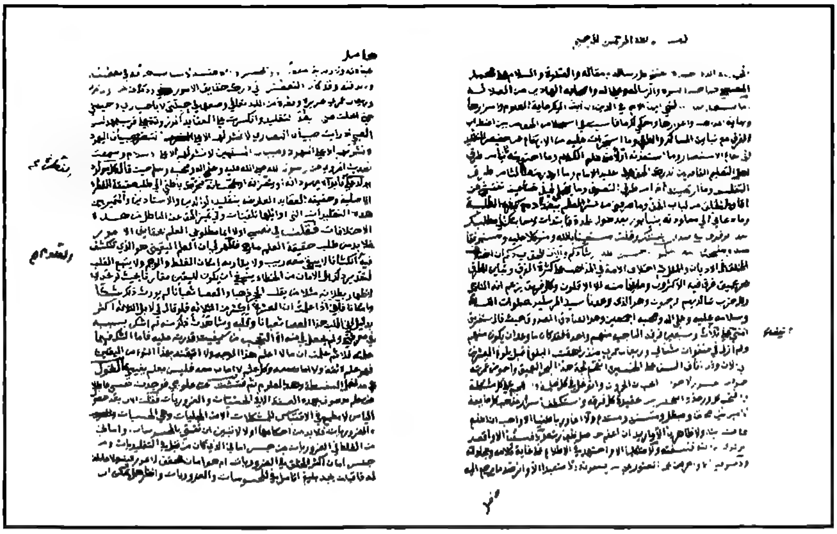

راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

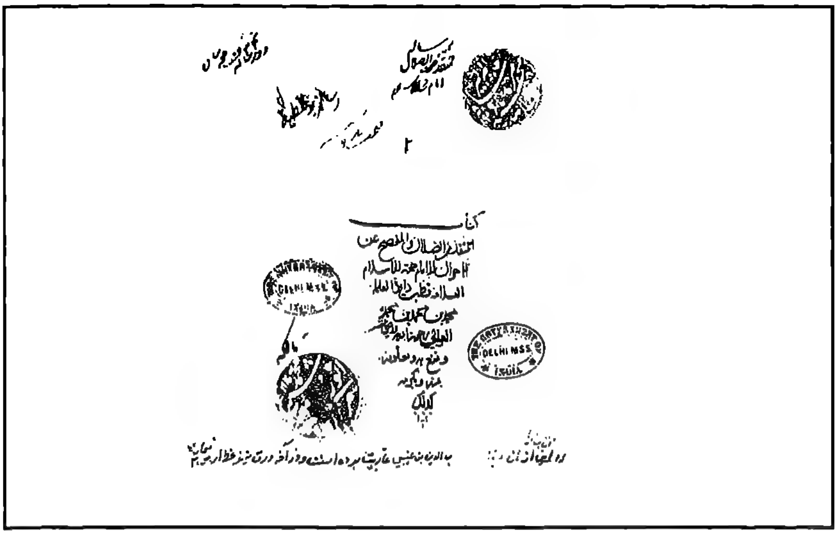

رامـوز ورقـة العنوان للنسخة (ج)

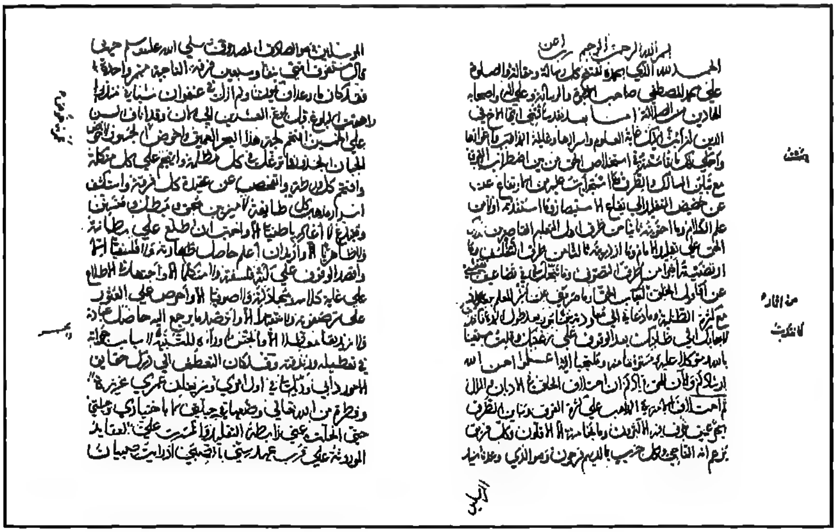

رامـوز الورقـة الأولى للنسخة (ج)

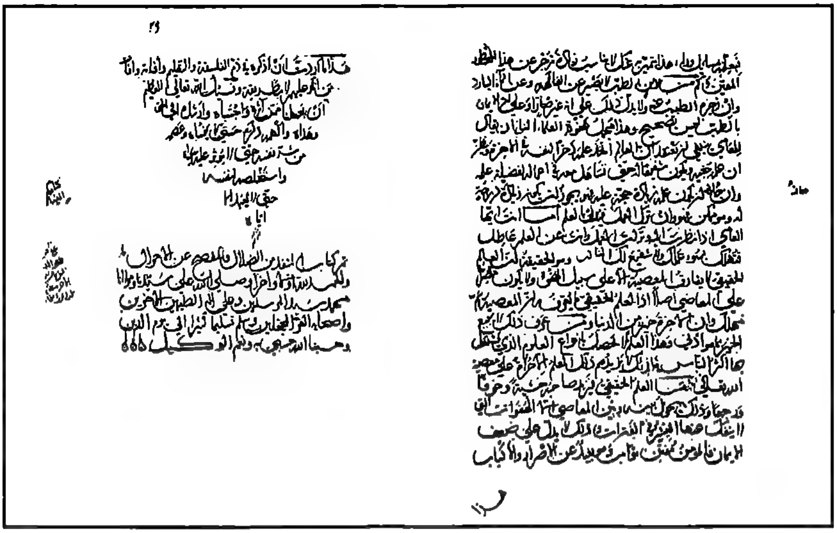

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ج)

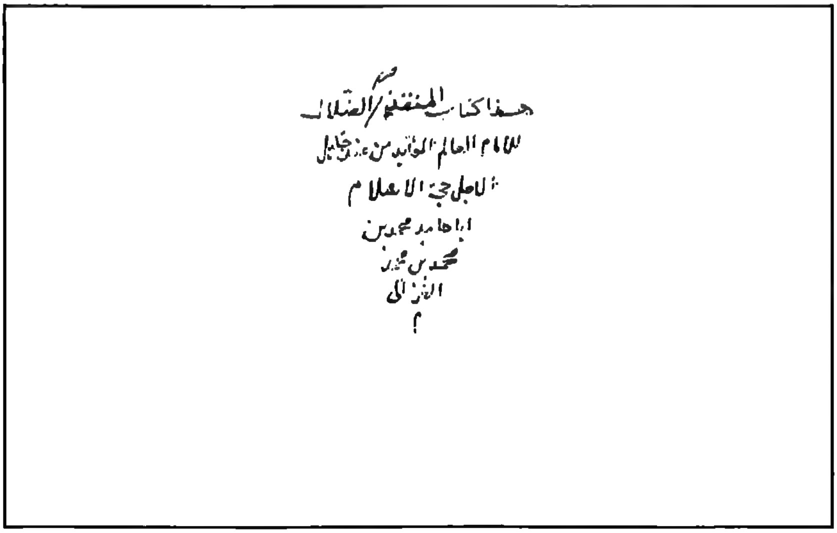

هذا كتاب المنقذ من الضلال
للامام العالم المؤيد من عند جليل
الاجل حجة الاعلام
ابا حامد محمد بن
محمد بن محمد
الغزالي

راموز ورقة العنوان للنسخة (د)

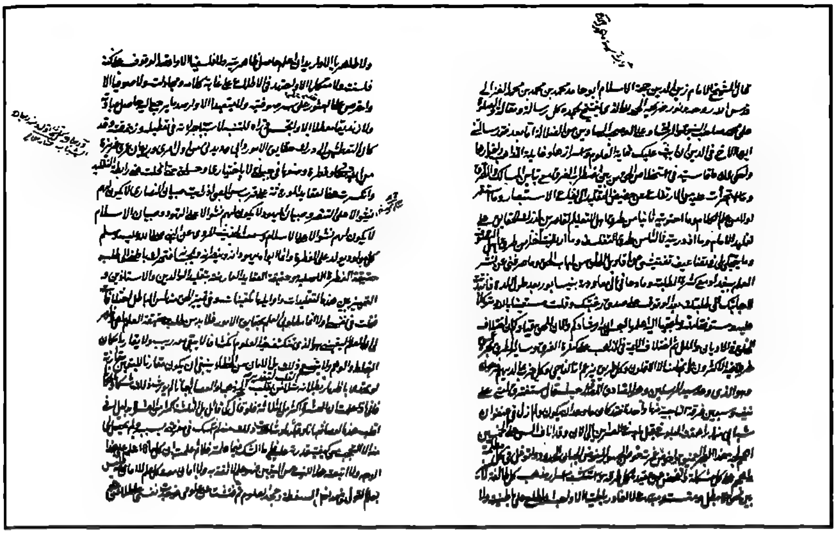

راموز الورقة الأولى للنّسخة (د)

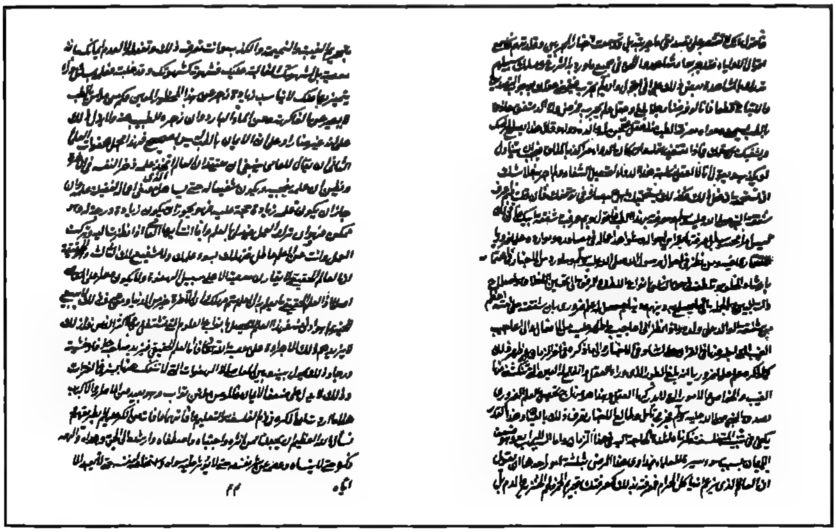

راموز الورقة الأخيرة للنّسخة (د)

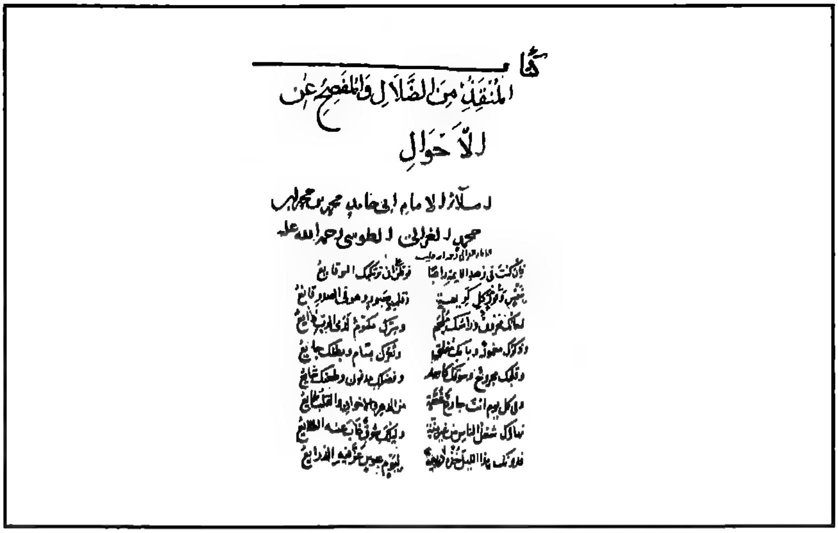
كتاب المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال

راموز ورقة العنوان للنسخة (هـ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (هـ)

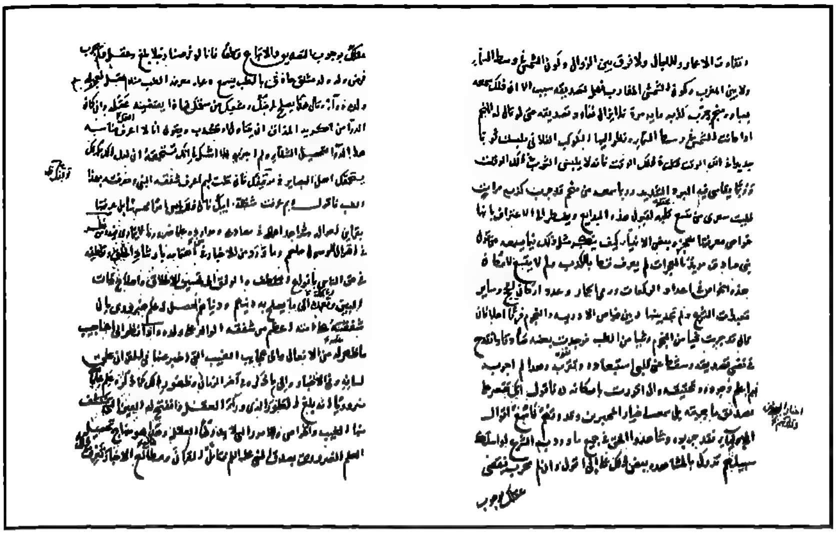

راموز الورقة الأخيرة للنّسخة (هـ)

المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال

راموز ورقة العنوان للنّسخة (و)

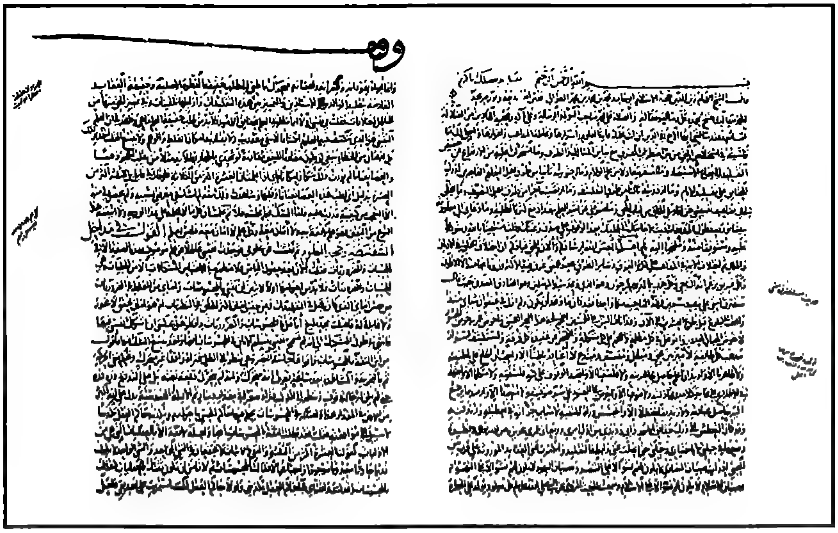

راموز الورقة الأولى للنسخة (و)

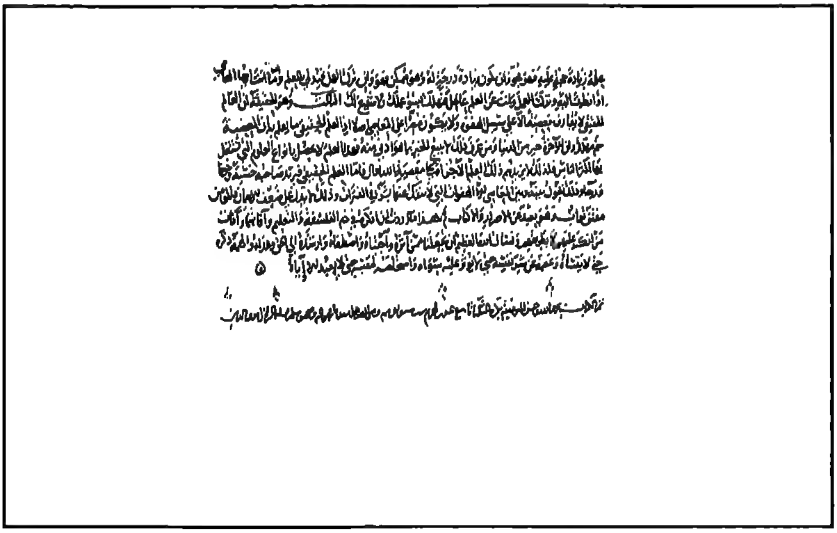

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ز)

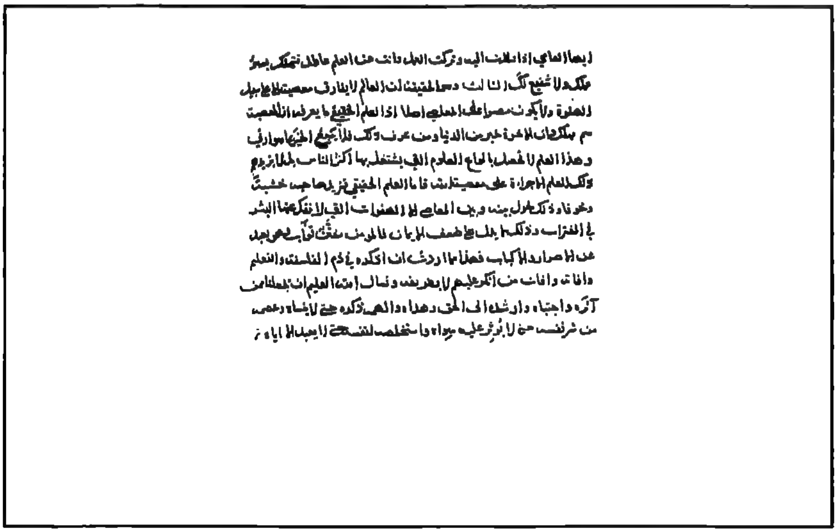

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ز)

المنقذ من الضلال

والمفصح بالأحوال

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

توكّلت على الحيّ الّذي لا يموت

قال الإمام الأجلّ الزّاهد، زين الدّين، حجّة الإسلام
أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزاليّ

خطبة الكتاب

الحمدُ للهِ الذي بحمدِهِ يُفتتَحُ كلُّ رسالةٍ ومقالةٍ، والصلاةُ علىٰ محمَّدٍ المصطفىٰ صاحبِ النبوَّةِ والرسالةِ، وعلىٰ آله وأصحابِهِ الهادينَ مِنَ الضلالةِ.

أمّا بعد:

سبب تأليف الكتاب

فقدْ سألتَني ـ أيُّها الأخُ في الدينِ ـ أنْ أبُثَّ إليكَ غايةَ العلومِ وأسرارَها، وغائلةَ المذاهبِ وأغوارَها [١]، وأحكيَ لكَ ما قاسيتُهُ في ٱستخلاصِ الحقِّ مِنْ بينِ ٱضطرابِ الفِرَقِ، مَعَ تباينِ المسالكِ والطرُقِ، وما ٱستجرأْتُ عليهِ مِنَ الارتفاعِ عنْ حضيضِ التقليدِ إلىٰ يَفاعِ الاستبصارِ [٢].

وما ٱستفدْتُهُ أوّلاً مِنْ علمِ الكلامِ، وما ٱجتويتُهُ ثانياً مِنْ

(١) غائلة الشيء: فساده وشرهُ، وغوره: قراره وبُعده.
(٢) اليفاع: المرتفع من كل شيء.

طُرُقِ أهلِ التعليمِ القاصرينَ لدَرَكِ الحقِّ علىٰ تقليدِ الإمامِ[1] ، وما ٱزدريتُهُ ثالثاً مِنْ طرقِ التفلْسُفِ ، وما ٱرتضيتُهُ آخراً مِنْ طريقةِ التصوُّفِ .

وما تنخَّلَ لي في تضاعيفِ تفتيشي عنْ أقاويلِ الخَلقِ مِنْ لُبابِ الحقِّ ، وما صرفَني عنْ نشْرِ العلمِ ببغدادَ معَ كثرةِ الطلبةِ ، وما دعاني إلىٰ معاودتِهِ بنَيْسابورَ بعدَ طولِ المدَّةِ .

جواب المؤلف لمن سأله

فابتدرْتُ لإجابتِكَ إلىٰ مطلبِكَ بعدَ الوقوفِ علىٰ صدْقِ رغبتِكَ ، وقلتُ مستعيناً باللهِ ومتوكِّلاً عليهِ ، ومُسْتَوْفِقاً منْهُ[2] وملتجئاً إليهِ :

الاختلاف في الأديان والمذاهب بحر عميق

ٱعلموا ـ أحسنَ اللهُ إرشادَكُمْ ، وألانَ للحقِّ قيادَكُمْ ـ أنَّ ٱختلافَ الخلقِ في الأديانِ والمِلَلِ ، ثُمَّ ٱختلافَ الأمَّةِ في المذاهبِ علىٰ كثرةِ الفِرَقِ ، وتباينِ الطُّرُقِ . . بحرٌ عميقٌ غرِقَ فيهِ الأكثرونَ ، وما نجا منْهُ إلَّا الأقلُّونَ ، وكلُّ فريقٍ يزعُمُ أنَّهُ الناجي ، وكلُّ حزبٍ بما لدَيهِمْ فَرِحونَ .

وهُوَ الذي وَعَدَنا بِهِ سيِّدُ المرسلينَ صلواتُ اللهِ عليهِ ـ وهُوَ الصادقُ المصدوقُ ـ حيثُ قالَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي نَيِّفاً وَسَبْعِينَ

---

(١) اجتوى الشيء : أنِفَ منه وبغضه .

(٢) يقال : استوفقت الله ؛ أي : سألته التوفيق .

فِرْقَةً ، ٱلنَّاجِيَةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ »[1] ، وقدْ كانَ ما وعدَ أنْ يكونَ .

ولمْ أزلْ في عُنفُوانِ شبابي ، ورَيْعانِ عُمري منذُ راهقتُ البلوغَ قبلَ بلوغِ العشرينَ إلى الآنَ ـ وقدْ أنافَ السنُّ على الخمسينَ ـ أتقحَّمُ لُجَّةَ هٰذا البحرِ العميقِ ، وأخوضُ غَمْرتَهُ خوضَ الجَسُورِ ، لا خوضَ الجبانِ الحَذُورِ ، وأتوغَّلُ في كلِّ مُظْلِمةٍ ، وأتهجَّمُ علىٰ كلِّ مشكلةٍ ، وأقتحمُ كلَّ ورطةٍ ، وأتفحَّصُ عنْ عقيدةِ كلِّ فرقةٍ .

وأستكشِفُ أسرارَ مذهبِ كلِّ طائفةٍ ؛ لأَميزَ بينَ محقٍّ ومبطِلٍ ، ومتسنِّنٍ ومبتدِعٍ .

لا أغادرُ باطنيّاً إلَّا وأحبُّ أنْ أطَّلعَ علىٰ بِطانتِهِ ، ولا ظاهريّاً إلَّا وأريدُ أنْ أعلمَ حاصلَ ظِهارتِهِ[2] .

ولا فلسفيّاً إلَّا وأقصِدُ الوقوفَ علىٰ كُنْهِ فلسفتِهِ ، ولا متكلِّماً إلَّا وأجتهدُ في الاطِّلاعِ علىٰ غايةِ كلامِهِ ومجادلتِهِ .

ولا صوفيّاً إلَّا وأحرصُ على العثورِ علىٰ سِرِّ صفوتِهِ ، ولا متعبِّداً إلَّا وأترصَّدُ ما رجعَ إليهِ حاصلُ عبادتِهِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٥٨٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) استعار بِطانة الثوب وظِهارته للدلالة علىٰ ما أُبطن من مذاهب المبتدعة ، أو جُمِد فيه على الظاهر .

ولا زِنديقاً مُعَطِّلاً إلَّا وأتجسَّسُ وراءَهُ ؛ للتنبُّهِ لأسبابِ جُرأتِهِ في تعطيلِهِ وزندَقَتِهِ .

نبوغ الإمام الغزالي وانحلال رابطة التقليد عنه في سن الصبا

وقدْ كانَ التعطُّشُ إلىٰ دَرَكِ حقائقِ الأمورِ دأْبي وديدَني ؛ مِنْ أوَّلِ أمري ورَيْعانِ عُمري غريزةً وفطرةً مِنَ اللهِ تعالىٰ وضعَها في جِبِلَّتي ، لا بأختياري وحِيلتي .

حتَّى أنحلَّتْ عنِّي رابطةُ التقليدِ ، وأنكسرَتْ عليَّ العقائدُ الموروثةُ علىٰ قربِ عهْدٍ بسنِّ الصِّبا ؛ إذْ رأيتُ صبيانَ النصارىٰ لا يكونُ لهُمْ نشوءٌ إلَّا على التنصُّرِ ، وصبيانَ اليهودِ لا نشوءَ لهُمْ إلَّا على التهوُّدِ ، وصبيانَ المسلمينَ لا نشوءَ لهُمْ إلَّا على الإسلامِ ، وسمعتُ الحديثَ المرويَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، وَيُنَصِّرَانِهِ ، وَيُمَجِّسَانِهِ »(١) .

تحرُّك الباطن لطلب الحق

فتحرَّكَ باطني إلىٰ طلبِ حقيقةِ الفطرةِ الأصليَّةِ ، وحقيقةِ العقائدِ العارضةِ بتقليدِ الوالدِينَ والأُسْتاذِينَ ، والتمييزِ بينَ هٰذهِ التقليداتِ ؛ وأوائلُها تلقيناتٌ ، وفي تمييزِ الحقِّ منْها عنِ الباطلِ أختلافاتٌ .

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٥/٢٦٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وعنده زيادة : « فإن كانا مسلمين . . فمسلم » .

فقلتُ في نفسي أوَّلاً : إنَّما مطلوبي العلمُ بحقائقِ الأمورِ ، فلا بدَّ مِنْ طلبِ حقيقةِ العلمِ ما هِيَ ؟

حقيقة العلم اليقيني وأنه الذي لا يقبل التشكيكَ والظنَّ

فظهرَ لي : أنَّ العلمَ اليقينيَّ : هُوَ الذي ينكشفُ فيهِ المعلومُ انكشافاً لا يبقىٰ معَهُ ريبٌ ، ولا يقارنُهُ إمكانُ الغلطِ والوهْمِ ، ولا يتَّسعُ القلبُ لتقريرِ ذٰلكَ .

بلِ الأمانُ مِنَ الخطأ : ينبغي أنْ يكونَ مقارناً لليقينِ مقارنةً لوْ تحدَّىٰ بإظهارِ بطلانِهِ مثلاً مَنْ يَقْلِبُ الحجرَ ذهباً والعصا ثعباناً . . لمْ يورثْ ذٰلكَ شكّاً وإمكاناً .

ضرب مثلٍ للعلم اليقيني

فإنِّي إذا علمتُ أنَّ العشرةَ أكثرُ مِنَ الثلاثةِ ؛ فلوْ قالَ لي قائلٌ : لا ؛ بلِ الثلاثةُ أكثرُ مِنَ العشرةِ ؛ بدليلِ أنِّي أقلِبُ هٰذه العصا ثعباناً ، وقَلَبَها ، وشاهدتُ ذٰلكَ منْهُ . . لمْ أشُكَّ بسببِهِ في معرفتي ، ولمْ يحصلْ لي منْهُ إلَّا التعجُّبُ مِنْ كيفيَّةِ قدرتِهِ عليهِ ، فأمَّا الشكُّ فيما علمتُهُ . . فلا .

كل علم داخلَهُ الشكُّ والتظنُّن . . فليس بعلم يقيني

ثُمَّ علمتُ أنَّ كلَّ ما لا أعلمُهُ علىٰ هٰذا الوجهِ ، ولا أتيقَّنُهُ هٰذا النوعَ مِنَ اليقينِ . . فهُوَ علمٌ لا ثقةَ بهِ ، ولا أمانَ معَهُ ، وكلُّ علمٍ لا أمانَ معَهُ . . فليسَ بعلمٍ يقينيٍّ .

القول في مداخل السّفسطة وجحد العلوم (١)

إحكام الحسيات والضروريات لا بدَّ منه للتحصُّن من الشكّ

ثُمَّ فتَّشْتُ عنْ علومي ، فوجدتُ نفسي عاطلةً عنْ علمٍ موصوفٍ بهٰذهِ الصفةِ إلَّا في الحسِّيَّاتِ والضروريَّاتِ .

فقلتُ : الآنَ بعدَ حصولِ اليأسِ لا مطمعَ في الاقتباسِ للمشكلاتِ إلَّا مِنَ الجليَّاتِ ؛ وهِيَ الحسِّيَّاتُ والضروريَّاتُ ، فلا بدَّ مِنْ إحكامِها أوّلاً ؛ لأتبيَّنَ أنَّ ثقتي بالمحسوساتِ (٢) ، وأماني مِنَ الغلطِ في الضروريَّاتِ . . أَهُوَ مِنْ جنسِ أماني الذي كانَ مِنْ قبلُ في التقليداتِ ، ومِنْ جنسِ أمانِ أكثرِ الخلقِ في النظريَّاتِ ، أمْ هُوَ أمانٌ محقَّقٌ لا غَورَ فيهِ ، ولا غائلةَ لهُ ؟

الأمان من الغلط في الضروريات هل هو من قِبَل التقليد ؟

التشكيك في الحواس ومدركاتها

فأقبلتُ بجِدٍّ بليغٍ أتأمَّلُ في المحسوساتِ والضروريَّاتِ ، وأنظرُ : هلْ يمكنُني أنْ أُشكِّكَ نفسي فيها ؟

بعد التشكيك لم تأمن نفس الإمام الغزالي من الشك في المحسَّات

فأنتهىٰ بي طولُ التشكيكِ إلىٰ أنْ لمْ تسمحْ نفسي بتسليمِ

---

(١) السفسطة : مذهب يوناني فلسفي يقوم علىٰ نفي الحقائق ، أو الشك فيها ، أو كونها تابعة للاعتقاد .

(٢) يعني : المحسّات ؛ لقياس اسم المفعول من الرباعي عليه ؛ إذ المحسوس من الثلاثي (حسَّ) بمعنى الاستئصال ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وكذا في كل ما سيأتي .

الأمانِ في المحسوسـاتِ أيضاً ، وأخذَ يتَّسـعُ الشـكُّ فيها ، وتقولُ : مِنْ أينَ الثقةُ بالمحسوسـاتِ وأقواها حاسَّةُ البصرِ ؛ وهِيَ تنظرُ إلى الظلِّ فتراهُ واقفـاً غيرَ متحرِّكٍ ، وتحكمُ بنفيِ الحركـةِ ، ثُمَّ بالتجربةِ والمشـاهدةِ بعدَ سـاعةٍ تعـرفُ أنَّهُ متحـرِّكٌ ، وأنَّهُ لمْ يتحرَّكْ دَفعةً بغتـةً ؛ بلْ على التدريجِ ذرَّةً ذرَّةً ، حتَّىٰ لمْ يكنْ لهُ حالةُ وقوفٍ ؟!

توهُّم الشكِّ في حاسَّة البصر والتمثيل لذلك

وتنظرُ إلى الكوكبِ فتراهُ صغيراً في مقدارِ دينارٍ ، ثُمَّ الأدلَّةُ الهندسيَّةُ تدُلُّ علىٰ أنَّهُ أكبرُ مِنَ الأرضِ في المقدارِ ؟!

هـٰذا وأمثالُهُ مِنَ المحسوساتِ يحكُمُ فيها حاكمُ الحسِّ بأحكامِهِ ، ويكذِّبُهُ حاكمُ العقلِ والتجربةِ تكذيباً لا سبيلَ إلىٰ مدافعتِهِ .

سقوط الثقة في إدراكات الحواسّ لبعض الوقت

فقلتُ : قدْ بطلتِ الثقةُ بالمحسوساتِ أيضاً ، فلعلَّهُ لا ثقةَ إلَّا بالعقليَّاتِ التي هِيَ مِنَ الأوَّليَّاتِ ؛ كقولِنا : العشرةُ أكثرُ مِنَ الثلاثةِ ، والنفيُ والإثباتُ لا يجتمعانِ في الشيءِ الواحدِ في حالةٍ واحدةٍ ، والشيءُ الواحدُ لا يكونُ حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً مُحالاً .

تشكيك المحسَّات بالعقليات

فقالتِ المحسوساتُ : بِمَ تأمنُ أنْ تكونَ ثقتُكَ بالعقليَّاتِ

كثقتِكَ بالمحسوساتِ وقدْ كنتَ واثقاً بي ، فجاءَ حاكمُ العقلِ فكذَّبَني ، ولولا حاكمُ العقلِ . . لكنتَ تستمرُّ علىٰ تصديقي ؟!

افتراض وجود حاكم وراء العقل يبطل حكمه

فلعلَّ وراءَ إدراكِ العقلِ حاكماً آخرَ ، إذا تجلَّىٰ . . كذَّبَ العقلَ في حكمِهِ ؛ كما تجلَّىٰ حاكمُ العقلِ فكذَّبَ الحسَّ في حكمِهِ ، وعدمُ تجلِّي ذٰلكَ الإدراكِ لا يدُلُّ على ٱستحالتِهِ !

افتراض أن ما في اليقظة من حسي وعقلي مثل ما في النوم خيالي لا وجود له

فتوقَّفتِ النفسُ في جوابِ ذٰلكَ قليلاً ، وأيَّدتْ إشكالَها بالمنامِ ، وقالَتْ : أمَا تراكَ تعتقدُ في النوم أموراً ، وتتخيَّلُ أحوالاً ، وتعتقدُ لها ثَباتاً وٱستقراراً ، ولا تشُكُّ في تلكَ الحالةِ فيها ، ثُمَّ تستيقظُ فتعلمُ أنَّهُ لمْ يكنْ لجميعِ متخيَّلاتِكَ ومعتقداتِكَ أصلٌ وطائلٌ ؟!

فبِمَ تأمنُ أنْ يكونَ جميعُ ما تعتقدُهُ في يقظتِكَ بحسٍّ أوْ عقلٍ هُوَ حقٌّ بالإضافةِ إلىٰ حالتِكَ التي أنتَ فيها ؟

مناقشة الفرضية بوضع الاحتمالات

لٰكنْ يمكنُ أنْ تطرأَ عليكَ حالةٌ تكونُ نسبتُها إلىٰ يقظتِكَ كنسبةِ يقظتِكَ إلىٰ منامِكَ ، وتكونُ يقظتُكَ نوماً بالإضافةِ إليها ؛ فإذا وردَتْ تلكَ الحالةُ . . تيقَّنتَ أنَّ جميعَ ما توهَّمْتَ بعقلِكَ خيالاتٌ لا حاصلَ لها .

ولعلَّ تلكَ الحالةَ ما يدَّعيها الصوفيَّةُ أنَّها حالتُهُمْ ؛ إذْ يزعُمونَ أنَّهُمْ يشاهدونَ في أحوالِهِمْ التي لهُمْ إذا غاصُوا في أنفسِهِمْ ، وغابوا عنْ حواسِّهِمْ أحوالاً لا توافقُ هـٰذهِ المعقولاتِ .

ولعلَّ تلكَ الحالةَ هِيَ الموتُ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا . . ٱنْتَبَهُوا »[1] .

فلعلَّ الحياةَ الدنيا نومٌ بالإضافةِ إلى الآخرةِ ، فإذا ماتَ . . ظهرَتْ لهُ الأشياءُ علىٰ خلافِ ما يشاهدُهُ الآنَ ، ويُقالُ لهُ عندَ ذٰلكَ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

مرض الإمام وابتلاؤه بفقد الثقة في الأوليّات

فلمَّا خطرَتْ لي هـٰذهِ الخواطرُ ، وٱنقدحَتْ في النفسِ . . حاولْتُ لذٰلكَ علاجاً فلمْ يتيسَّرْ ؛ إذْ لمْ يمكنْ دفعُهُ إلَّا بدليلٍ ، ولمْ يمكنْ نصبُ دليلٍ إلَّا مِنْ تركيبِ العلومِ الأوَّليَّةِ ، فإذا لمْ تكنْ مسلَّمةً . . لمْ يمكنْ ترتيبُ الدليلِ .

شفاء الإمام من تلك الحيرة وعود النفس للصحة والاعتدال

فأعضلَ هـٰذا الداءُ ، ودامَ قريباً مِنْ شهرينِ ، أنا فيهِما علىٰ مذهبِ السَّفْسَطَةِ بحكمِ الحالِ ، لا بحكمِ النطقِ والمقالِ ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/٥٢) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ، وقال الحافظ العراقي : (وإنما يعزىٰ إلىٰ علي بن أبي طالب) . انظر « إتحاف السادة المتقين » (٨/٥٤٨) .

حتَّىٰ شفى اللهُ تعالىٰ مِنْ ذٰلكَ المرضِ والِاعتلالِ ، وعادَتِ النفسُ إلى الصحَّةِ والِاعتدالِ ، ورجعَتِ الضروريَّاتُ العقليَّةُ مقبولةً موثوقاً بها علىٰ أمْنٍ ويقينٍ .

سبب الشفاء نورٌ من الله لا بدليل وترتيب كلام

ولمْ يكنْ ذٰلكَ بنظْمِ دليلٍ وترتيبِ كلامٍ ، بلْ بنورٍ قذفَهُ اللهُ تعالىٰ في الصدْرِ ؛ وذٰلكَ النورُ هُوَ مِفتاحُ أكثرِ المعارفِ ، فمَنْ ظنَّ أنَّ الكشْفَ موقوفٌ على الأدلَّةِ المحرَّرَةِ . . فقدْ ضيَّقَ رحمةَ اللهِ تعالى الواسعةَ (١) .

بيان ذلك النور بلسان الشريعة

ولمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ (ٱلشَّرْحِ) ومعناهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ . . قالَ : « هُوَ نُورٌ يَقذِفُهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ فِي ٱلْقَلْبِ ، فَيَشْرَحُ لَهُ ٱلصَّدْرَ » ، فقِيلَ : وما علامتُهُ ؟ قالَ : « ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْخُلُودِ » (٢) .

---

(١) والدليل البرهاني لإبطال مذهب السفسطة علىٰ منحيين : تحقيقاً : أنا نجزم بالضرورة بثبوت بعض الأشياء بالعيان ، وبعضها بالبيان . وإلزاماً : أنه إذا لم يتحقق نفي الأشياء . . فقد ثبتت ، وإن تحقق . . فقد ثبت شيء من الحقائق ، فلم يصح نفيها على الإطلاق . انظر « شرح العقائد النسفية » (ص٥٩) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٦٨) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وفي (د ، و) : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ، وهو كذٰلك في « الزهد » لابن المبارك (٣١٥) .

هٰذا النـور ينبغي طلبه والتعرُّض له

وهُوَ النورُ الذي قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ : « إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ ٱلْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ » (١) .

فمِنْ ذٰلكَ النورِ ينبغي أنْ يُطلَبَ الكشْفُ ، وذٰلكَ النورُ ينبَجِسُ مِنَ الجودِ الإلـٰهيِّ في بعضِ الأحايينِ ، ويجبُ الترصُّدُ لهُ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » (٢) .

المقصود مما سبق بيان الغاية من كمال الجد في الطلب

والمقصودُ مِنْ هٰذهِ الحكايةِ : أنْ تعلمَ كمالَ الجِدِّ في الطلبِ ، حيثُ ٱنتهىٰ إلىٰ طلبِ ما لا يُطلَبُ ، فإنَّ الأَوَّليَّاتِ ليسَتْ مطلوبةً ؛ فإنَّها حاضرةٌ ، والحاضرُ إذا طُلِبَ . . فُقِدَ وٱختفىٰ ، ومَنْ طلبَ ما لا يُطلَبُ . . فلا يُتَّهَمُ بالتقصيرِ في طلَبِ ما يُطلَبُ .

* * *

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦١٧٠) ، والترمذي (٢٦٤٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٣٣/١٩) ، والرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٤٩٧) عن سيدنا محمد بن مسلمة الأنصاريّ رضي الله عنه .

القول في أصناف الطّالبين

بيان أن الحق لا يعدو هٰذه الفرق الأربعة

ولمَّا كفاني اللهُ تعالىٰ مؤونةَ هٰذا المرضِ بفضلِهِ وسَعَةِ جودِهِ . . ٱنحصرَتْ أصنافُ الطالبينَ عندي في أربعِ فِرَقٍ :

المتكلمونَ : وهمْ يدَّعونَ أنَّهُمْ أهلُ الرأيِ والنظرِ .

والباطنيَّةُ : وهمْ يزعُمونَ أنَّهُمْ أصحابُ التعليمِ ، والمخصوصونَ بالِاقتباسِ مِنَ الإمامِ المعصومِ .

والفلاسفةُ : وهمْ يزعمونَ أنَّهُمْ أهلُ المنطقِ والبرهانِ .

والصوفيَّةُ : وهمْ يدَّعونَ أنَّهُمْ خواصُّ حضرةِ الربوبيَّةِ ، وأهلُ المشاهدةِ والمكاشفةِ .

❁ ❁ ❁

دليل حصر الطالبين في هٰذه الأصناف الأربعة

فقلتُ في نفسي : الحقُّ لا يعدو هٰذهِ الأصنافَ الأربعةَ ؛ فهٰؤلاءِ همُ السالكونَ سبلَ طلبِ الحقِّ ، فإنْ شذَّ الحقُّ عنْهُمْ . . فلا يبقىٰ في دَرَكِ الحقِّ مطمعٌ ؛ إذْ لا مطمعَ في الرجوعِ إلى التقليدِ بعدَ مفارقتِهِ .

إذْ مِنْ شرطِ المقلِّدِ : ألَّا يعلمَ أنَّهُ مقلِّدٌ ، فإذا علِمَ ذٰلكَ . . ٱنكسرتْ زجاجةُ تقليدِهِ ، وهُوَ شَعْبٌ لا يُرأَبُ ، وشَعَثٌ لا يُلَمُّ

بالتلفيقِ والتأليفِ ، إلَّا أنْ يُذابَ بالنارِ ، ويُستأنفَ لهُ صنعةٌ أخرىٰ مستجدَّةٌ .

المبادرة باستقصاء ما عند هٰذه الفرق

فٱبتدرتُ لسلوكِ هٰذهِ الطُرُقِ ، وٱستقصاءِ ما عندَ هٰذهِ الفِرَقِ ؛ مبتدِئاً بعلمِ الكلامِ ، ومثنّياً بطريقِ الفلسفةِ ، ومثلّثاً بتعليماتِ الباطنيَّةِ ، ومربّعاً بطريقةِ الصوفيَّةِ .

* * *

القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله

لم يوفِ علم الكلام بمقصود الإمام

ثُمَّ إنِّي ٱبتدأتُ بعلمِ الكلامِ ، فحصَّلتُهُ وعَلَّقْتُهُ ، وطالعْتُ كتبَ المحقِّقينَ منهُمْ ، وصنَّفتُ فيهِ ما أردتُ أنْ أصنِّفَ ، فصادفتُهُ علماً وافياً بمقصودِهِ غيرَ وافٍ بمقصودي .

مقصود علم الكلام

وإنَّما مقصودُهُ : حفظُ عقيدةِ أهلِ السنَّةِ علىٰ أهلِ السنَّةِ ، وحراستُها عنْ تشويشِ أهلِ البدعةِ .

إنزال العقيدة الحق ومحاولة المبتدعة الإخلال بها

فقدْ ألقى اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ عبادِهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ عقيدةً هِيَ الحقُّ علىٰ ما فيهِ صلاحُ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، كما نطقَ بمُفرَّقاتِهِ القرآنُ والأخبارُ ، ثُمَّ ألقى الشيطانُ في وساوسِ المبتدعةِ أموراً مخالفةً للسنَّةِ ، فلهِجوا بها ، وكادوا يشوِّشونَ عقيدةَ الحقِّ علىٰ أهلِها .

نشأة علم الكلام بتسليط الله المتكلمين على المبتدعة ورد محدثاتهم

فأنشأَ اللهُ تعالىٰ طائفةَ المتكلِّمينَ ، وحرَّكَ دواعيَهُمْ لنُصرةِ السنَّةِ بكلامٍ مرتَّبٍ ، يكشِفُ عنْ تلبيساتِ أهلِ البدَعِ المحدثَةِ علىٰ خلافِ السنَّةِ المأثورةِ ، فمنْهُ نشأَ علمُ الكلامِ وأهلُهُ ، فلقدْ قامَ طائفةٌ منْهُمْ بما ندبَهُمُ اللهُ تعالىٰ لهُ ، فأحسنوا الذبَّ

عنِ السُّنَّةِ ، والنضالَ عنِ العقيدةِ المتلقَّاةِ بالقَبولِ مِنَ النبوَّةِ ، والتغبير في وجهِ ما أُحدِثَ مِنَ البدعةِ .

❁ ❁ ❁

ضعف العلم الناشئ عن مسلَّمات الخصوم

ولٰكنَّهُمُ ٱعتمدوا في ذٰلكَ علىٰ مقدِّماتٍ يسلِّمونَها مِنْ خصومِهِمْ ، ٱضطرَّهُمْ إلىٰ تسليمِها : إمَّا التقليدُ ، أوْ إجماعُ الأمَّةِ ، أوْ مجرَّدُ القَبولِ مِنَ القرآنِ والأخبارِ .

وكانَ أكثرُ خوضِهِمْ في ٱستخراجِ مناقضاتِ الخصومِ ، ومؤاخذتِهِمْ بلوازمِ مسلَّماتِهِمْ ، وهٰذا قليلُ النفعِ في حقِّ مَنْ لا يسلِّمُ سوى الضروريَّاتِ شيئاً أصلاً ، فلمْ يكنِ الكلامُ في حقِّي كافياً ، ولا لدائي الذي كنتُ أشكوهُ شافياً .

❁ ❁

سبب عدم بلوغ علم الكلام الغاية في الذب عن السنة

نعمْ ؛ لمَّا نشأَتْ صنعةُ الكلامِ ، وكثُرَ الخوضُ فيهِ ، وطالَتِ المدَّةُ . . تشوَّفَ المتكلمونَ إلىٰ محاولةِ الذبِّ عنِ السنَّةِ بالبحثِ عنْ حقائقِ الأمورِ ، وخاضوا في البحثِ عنِ الجواهرِ والأعراضِ وأحكامِها ؛ ولٰكنْ لمَّا لمْ يكنْ ذٰلكَ مقصودَ علمِهِمْ . . لمْ يبلغْ كلامُهُمْ فيهِ الغايةَ القُصوىٰ ، فلمْ يحصلْ منْهُ ما يمحَقُ بالكليَّةِ ظُلُماتِ الحَيرةِ في ٱختلافاتِ الخَلقِ .

بيان أن حيرة الإمام لم تُشفَ بما عند أهل علم الكلام

ولا أُبعدُ أن يكونَ قدْ حصلَ ذٰلكَ لغيري ، بلْ لستُ أشُكُّ في حصولِ ذٰلكَ لطائفةٍ ، ولٰكنْ حصولاً مَشُوباً بالتقليدِ في بعضِ الأمورِ التي ليسَتْ مِنَ الأوَّليَّاتِ ، والغرضُ الآنَ حكايةُ حالي ، لا الإنكارُ علىٰ مَن ٱستشفىٰ بهِ ؛ فإنَّ أدويةَ الشفاءِ تختلفُ بٱختلافِ الداءِ ، وكمْ منْ دواءٍ ينتفعُ بهِ مريضٌ ويستضرُّ بهِ آخرُ !!

❋ ❋ ❋

القول في حاصل الفلسفة

وما يُذمّ منها وما لا يُذمّ ، وما يُكفَّر فيه قائله وما لا يُكفَّر ، ولكن يُبدَّع فيه وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحقّ ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك وكيفيّة حصول نفرة النّفوس من ذلك الحقّ وكيفيّة استخلاص صراف الحقائق الحقّ الخالص من الزّيف والبهرج من جملة كلامهم

الوقوف على فساد علم من العلوم بالتبحر فيه

ثُمَّ إنِّي ٱبتدأتُ بعدَ الفراغِ مِنْ علمِ الكلامِ بعلمِ الفلسفةِ ، وعلمتُ يقيناً : أنَّهُ لا يقِفُ علىٰ فسادِ نوعٍ مِنَ العلومِ مَنْ لا يقفُ علىٰ منتهىٰ ذٰلكَ العلمِ ؛ حتَّىٰ يساويَ أعلمَهُمْ في أصلِ ذٰلكَ العلمِ ، ثُمَّ يزيدَ عليهِ ويجاوزَ درجتَهَ ، فيطَّلعَ علىٰ ما لمْ يطَّلعْ عليهِ صاحبُ العلمِ مِنْ غَورٍ وغائلةٍ ، فإذْ ذاكَ يمكنُ أنْ يكونَ ما يدَّعيهِ مِنْ فسادِهِ حقّاً .

ابتعاد علماء الإسلام عن علم الفلسفة

ولمْ أرَ أحداً مِنْ علماءِ الإسلامِ صرفَ عِنانَ عنايتِهِ وهمَّتِهِ إلىٰ ذٰلكَ ، ولمْ يكنْ في كتبِ المتكلّمينَ مِنْ كلامِهِمْ حيثُ ٱشتغلُوا بالردِّ عليهِمْ إلا كلماتٌ معدودةٌ مبدَّدَةٌ ظاهرةُ

التناقضِ والفسادِ ، لا يُظَنُّ الِاغترارُ بها لغافلٍ عامِّيٍّ ، فضلاً عمَّنْ يدَّعي دقائقَ العلومِ .

فعلمتُ أنَّ ردَّ هٰذا المذهبِ قبلَ فهمِهِ والِاطِّلاعِ علىٰ كُنْهِهِ رميٌ في عَمايةٍ .

❊

خوض الإمام الغزالي خِضَم بحر الفلسفة بحثاً عن الحق فيه

فشمَّرْتُ عنْ ساقِ الجِدِّ في تحصيلِ ذٰلكَ العلمِ مِنَ الكتبِ بمجرَّدِ المطالعةِ مِنْ غيرِ ٱستعانةٍ بأستاذٍ ومعلِّمٍ ، وأقبلْتُ علىٰ ذٰلكَ في أوقاتِ فراغي مِنَ التدريسِ والتصنيفِ في العلومِ الشرعيَّةِ وأنا ممنُوٌّ بالتدريسِ والإفادةِ لثلاثِ مئةِ نفرٍ مِنَ الطلبةِ ببغداذَ (١) .

❊ ❊ ❊

قوة اطلاع الإمام على علم الفلسفة كشفت له ما فيه من خداع وتلبيس

فأطلعَني اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ بمجرَّدِ المطالعةِ في هٰذهِ الأوقاتِ المختلَسَةِ علىٰ منتهىٰ علومِهِمْ في أقلَّ مِنْ سنتينِ ، ثُمَّ لمْ أزلْ أواظبُ على التفكُّرِ فيهِ بعدَ فهمِهِ قريباً مِنْ سنةٍ أعاودُهُ وأردِّدُهُ ، وأتفقَّدُ غوائلَهُ وأغوارَهُ ، حتَّى ٱطَّلعتُ علىٰ ما فيهِ مِنْ خِداعٍ وتلبيسٍ ، وتحقيقٍ وتخييلٍ ، ٱطِّلاعاً لمْ أشُكَّ فيهِ .

لزوم الكفر والإلحاد للفلاسفة

فٱسمعِ الآنَ حكايةَ مذهبِهِمْ وحاصلَ علومِهِمْ : فإنِّي رأيتُهُمْ

---

(١) ممنو : مبتلىً ، وبغداذ : بغداد ، وقد تقدمت .

أصنافاً ، ورأيتُ علومَهُمْ أقساماً ، وهمْ علىٰ كثرةِ أصنافِهِمْ تلزمُهُمْ وَصْمَةُ الكفرِ والإلحادِ ، وإنْ كانَ بينَ القدماءِ منْهُمْ والأقدمينَ وبينَ الأواخرِ منْهُمْ والأوائلِ تفاوتٌ عظيمٌ في البعدِ عنِ الحقِّ والقربِ منْهُ .

* * *

فَصْلٌ
في أصنافهم وشمول سمة الكفر كافتهم

حصر الفلاسفة في أقسام ثلاثة

ٱعلمْ : أنَّهُمْ علىٰ كثرةِ فرَقِهِمْ ، وٱختلافِ مذاهبِهِمْ ينقسمونَ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : الدُّهْريُّون ، والطبيعيُّونَ ، والإلـٰهيُّونَ .

❊ ❊ ❊

أولاً : الدهريون وبيان معتقدهم

الصِّنفُ الأوَّلُ : الدُّهريُّونَ : وهمْ طائفةٌ مِنَ الأقدمينَ ، جحدوا الصانعَ المدبِّرَ العالِمَ القادرَ ، وزعموا أنَّ العالَمَ لمْ يَزَلْ موجوداً كذٰلكَ بنفسِهِ لا بصانعٍ ، ولمْ يزلِ الحيوانُ مِنْ نُطفةٍ ، والنطفةُ مِنْ حيوانٍ ، كذٰلكَ كانَ ، وكذٰلكَ يكونُ ، أزلاً وأبداً ، وهـٰؤلاءِ همُ الزنادقةُ .

❊ ❊ ❊

ثانياً : الطبيعيون وبيان معتقدهم

الصِّنفُ الثاني : الطبيعيُّونَ : وهمْ قومٌ أكثروا بحثَهُمْ عنْ عالَمِ الطبيعةِ ، وعنْ عجائبِ الحيوانِ والنباتِ ، وأكثروا الخوضَ في علمِ تشريحِ أعضاءِ الحيواناتِ ؛ فرأَوا فيها مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ وبدائعِ حكمتِهِ ما ٱضطُرّوا معَهُ إلى الاعترافِ بفاطرٍ حكيمٍ ، مطَّلعٍ علىٰ غاياتِ الأمورِ ومقاصدِها .

❊ ❊

شبهة اعتقاد الطبيعيين القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه

ولا يطالعُ التشريحَ وعجائبَ منافعِ الأعضاءِ مطالعٌ إلَّا ويحصلُ لهُ هٰذا العلْمُ الضروريُّ بكمالِ تدبيرِ الباني لبُنيةِ الحيوانِ ، لا سيَّما بُنيةِ الإنسانِ ، إلَّا أنَّ هٰؤلاءِ لكثرةِ بحثِهِمْ عنِ الطبيعةِ ظهرَ عندَهُمْ لِاعتدالِ المِزاجِ تأثيرٌ عظيمٌ في قِوامِ قُوى الحيوانِ بهِ ، فظنُّوا أنَّ القوَّةَ العاقلةَ مِنَ الإنسانِ تابعةٌ لمِزاجِهِ أيضاً ، وأنَّها تبطلُ ببطلانِ مزاجِهِ فينعدمُ .

وقوعهم في إنكار الإعادة بعد العدم وكفرهم بذلك

ثُمَّ إذا انعدمَ . . فلا يُعقَلُ إعادةُ المعدومِ كما زعموا ، فذهبوا إلىٰ أنَّ النفسَ تموتُ ولا تعودُ ؛ فجحدوا الآخرةَ ، وأنكروا الجنَّةَ والنارَ ، والحشرَ والنشرَ ، والقيامةَ والحسابَ ، فلمْ يبقَ عندَهُمْ للطاعةِ ثوابٌ ، ولا للمعصيةِ عقابٌ ، فانحلَّ عنْهُمُ اللِّجامُ ، وانهمكوا في الشهواتِ انهماكَ الأنعامِ ، وهٰؤلاءِ أيضاً زنادقةٌ ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ هُوَ الإيمانُ باللهِ واليومِ والآخرِ ، وهٰؤلاءِ جحدوا اليومَ الآخرَ وإنْ آمنوا باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ .

❊ ❊ ❊

ثالثاً : الإلٰهيون وبيان أساتذتهم ومعتقدهم

الصنفُ الثالثُ : الإلٰهيُّونَ : وهمُ المتأخِّرونَ منهُمْ ؛ مثلُ سقراطَ وهُوَ أستاذُ أَفْلاطُونَ ، وأَفْلاطُونَ أستاذِ أرسطاطاليسَ ، وأرسطاطاليسُ هُوَ الذي رتَّبَ لهُمُ المنطقَ ، وهذَّبَ العلومَ ،

وخمَّرَ لهُمْ ما لمْ يكنْ مخمَّراً مِنْ قبلُ ، وأنضجَ لهُمْ ما كانَ فِجّاً مِنْ علومِهِمْ .

برڈهم على بعضهم كُفي المؤمنون

وهمْ بجملتِهِمْ ردُّوا على الصنفينِ الأوَّلينِ مِنَ الدَّهريَّةِ والطبيعيَّةِ ، وأوردُوا في الكشفِ عنْ فضائحِهِمْ ما أغنَوا بهِ غيرَهُمْ ، وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ بتقاتُلِهِمْ .

ثُمَّ رَدَّ أرسطاطاليسُ علىٰ أفلاطونَ وسقراطَ ومَنْ كانَ قبلَهُ مِنَ الإلـٰهيّينَ ردّاً لمْ يُقصِّرْ فيهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ تبرَّأَ مِنْ جميعِهِمْ ، إلَّا أنَّهُ ٱستبقىٰ مِنْ رذائلِ كفرِهِمْ وبدعتِهِمْ بقايا لمْ يُوفَّقْ للنزوعِ عنْها ؛ فوجبَ بذٰلكَ تكفيرُهُمْ وتكفيرُ متَّبعيهِمْ مِنْ متفلسِفةِ الإسلاميّينَ ؛ كابنِ سِينا والفارَابيِّ وأمثالِهِما .

ابن سينا والفارابي مَن أحسنا نقل علم أرسطاطاليس

علىٰ أنَّهُ لمْ يقمْ بنقلِ علْمِ أرسطاطاليسَ أحدٌ مِنْ متفلسِفةِ الإسلاميّينَ كقيامِ هـٰذينِ الرجلينِ ، وما نقلَهُ غيرُهُما . . ليسَ يخلو مِنْ تخبُّطٍ وتخليطٍ يتشوَّشُ فيهِ قلبُ المطالِعِ ، حتَّىٰ لا يفهمُ ، وما لا يُفهَمُ . . كيفَ يُرَدُّ أوْ يُقبَلُ ؟!

أقسام ما صحَّ من فلسفة أرسطاطاليس مع الحكم الشرعي عليه

ومجموعُ ما صحَّ عندَنا مِنْ فلسفةِ أرسطاطاليسَ بحسبِ نقْلِ هـٰذينِ الرجلينِ . . ينحصرُ في ثلاثةِ أقسامٍ :

ـ قسمٌ يجبُ التكفيرُ بهِ .

ـ وقسمٌ يجبُ التبديعُ بهِ .

ـ وقسمٌ لا يجبُ إنكارُهُ أصلاً ، فلنفصِّلْهُ :

* * *

فَصْلٌ
فِي أقسامِ علومِهم

اعلمْ : أنَّ علومَهُمْ بالنسبةِ إلى الغرضِ الذي نطلبُهُ ستةُ أقسامٍ : رياضيَّةٌ ، ومنطقيَّةٌ ، وطبيعيَّةٌ ، وإلٰهيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ ، وخُلقيَّةٌ .

العلوم الرياضية وآفتاها

أمَّا الرياضيَّةُ : فتتعلَّقُ بعلمِ الحسابِ ، والهندسةِ ، وعلمِ هيئةِ العالَمِ ، وليسَ يتعلَّقُ منْها شيءٌ بالأمورِ الدينيَّةِ نفياً وإثباتاً ؛ بلْ هِيَ أمورٌ برهانيَّةٌ لا سبيلَ إلىٰ مجاحدَتِها بعدَ فهمِها ومعرفتِها .

وقدْ تولَّدتْ منْها آفتانِ :

أولى الآفتين : تحسين الاعتقاد بالفلاسفة

إحداهُما : أنَّ مَنْ ينظرُ فيها فيتعجَّبُ مِنْ دقائقِها ومِنْ ظهورِ براهينِها . . يَحْسُنُ بسببِ ذٰلكَ اعتقادُهُ في الفلاسفةِ ، فيحسَبُ أنَّ جميعَ علومِهِمْ في الوضوحِ ووثاقةِ البرهانِ كهٰذا العلمِ .

ثُمَّ يكونُ قدْ سمعَ مِنْ كفرِهِمْ وتعطيلِهِمْ وتهاونِهِمْ بالشرعِ

ما تداولتْهُ الألسُنُ ؛ فيكفرُ بالتقليدِ المحضِ ، ويقولُ : لوْ كانَ الدينُ حقّاً . . لَمَا ٱختفىٰ علىٰ هٰؤلاءِ معَ تدقيقِهِمْ في هٰذا العلمِ !!

الاستدراج بتحسين الاعتقاد للوقوع في تقليدهم في الكفر

فإذا عَرَفَ بالتسامعِ كفرَهُمْ وجَحْدَهُمْ . . ٱستدلَّ علىٰ أنَّ الحقَّ هُوَ الجحدُ والإنكارُ للدِّينِ ، وكمْ رأيتُ ممَّنْ ضَلَّ عنِ الحقِّ بهٰذا القدْرِ ولا مستندَ لهُ سواهُ !!

الرد على شبهة استحسانهم وتقليدهم بأن الحذق في صناعةٍ لا يعني الحذق في كل صناعة

وإذا قِيلَ لهُ : الحاذقُ في صناعةٍ واحدةٍ ليسَ يلزمُ أنْ يكونَ حاذقاً في كلِّ صناعةٍ [1] ؛ فلا يلزمُ أنْ يكونَ الحاذقُ في الفقهِ والكلامِ حاذقاً في الطبِّ ، ولا أنْ يكونَ الجاهلُ بالعقليَّاتِ جاهلاً بالنحوِ ، بلْ لكلِّ صناعةٍ أهلٌ بلغوا فيها رتبةَ البراعةِ والسَّبْقِ ، وإنْ كانَ الخَمْنُ والجهلُ قدْ يلزمُهُمْ في غيرِها [2] ؛ فكلامُ الأوائلِ في الرياضيَّاتِ برهانيٌّ ، وفي الإلٰهيَّاتِ تخمينيٌّ ، لا يَعرفُ ذٰلكَ إلَّا مَنْ جرَّبَهُ وخاضَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ز) : (أن يكون حاذقاً في صناعة أخرىٰ) .

(٢) الخَمْنُ : مصدرٌ كالتخمين ، وهو القول بالحدس ، وفي غير (أ) : (الحمق) .

الهوىٰ أو التعصب من المقلد هو الداء العضال

فهـٰذا إذا قُرِّرَ علىٰ هـٰذا الذي أَلحدَ بالتقليدِ . . لمْ يقعْ منْهُ موقعَ القَبولِ ، بلْ تحملُهُ غلبةُ الهوىٰ وشهوةُ البَطالةِ وحبُّ التكايسِ علىٰ أنْ يُصِرَّ علىٰ تحسينِ الظنِّ بهِمْ في العلوم كلِّها .

فهـٰذهِ آفةٌ عظيمةٌ لأجلِها يجبُ زجْرُ كلِّ مَنْ يخوضُ في تلكَ العلومِ ؛ فإنَّها وإنْ لمْ تتعلَّقْ بأمرِ الدِّينِ ، ولـٰكنْ لمَّا كانَتْ مِنْ مبادئِ علومِهِمْ . . سرىٰ إليها شرُّهُمْ وشؤمُهُمْ ، فقلَّ مَنْ يخوضُ فيها إلَّا وينخلعُ مِنَ الدِّينِ ، وينحلُّ عنْ رأسِهِ لِجامُ التقوىٰ .

❊ ❊ ❊

ثاني الآفتين : ضرر جهل بعض المسلمين على الإسلام

الآفةُ الثانيةُ : نشـأَتْ مِنْ صديقٍ للإسـلامِ جاهلٍ ، ظَنَّ أنَّ الديـنَ ينبغي أنْ يُنصَرَ بإنكارِ كلِّ علمٍ منسـوبٍ إليهِمْ ، فأنكـرَ جميـعَ علومِهِمْ ، وٱدَّعىٰ جهلَهُـمْ فيها ، حتَّىٰ أنكرَ قولَهُمْ في الخسـوفِ والكسـوفِ ، وزَعَـمَ أنَّ ما قالوهُ علىٰ خلافِ الشرعِ .

الاحتجاج بسفه جاهل مسلم على تسفيه الإسلام وتجهيله

فلمَّا قَرَعَ ذٰلكَ سَمْعَ مَنْ عَرَفَهُ بالبرهانِ القاطعِ . . لمْ يشُكَّ في برهانِهِ ، ولـٰكنِ ٱعتقدَ أنَّ الإسلامَ مبنيٌّ على الجهلِ وإنكارِ البرهانِ القاطعِ ، فٱزدادَ للفلسفةِ حبّاً وللإسلامِ بغضاً ، ولقدْ عَظُمَ على الدِّينِ جِنايةُ مَنْ ظنَّ أنَّ الإسلامَ يُنصَرُ بإنكارِ هـٰذهِ العلومِ ، وليسَ في الشرعِ تعرُّضٌ لهـٰذهِ العلومِ بالنفيِ

والإثباتِ ، ولا في هـٰذهِ العلومِ تعرُّضٌ للأمورِ الدينيَّةِ .

الإسلام لا يعارض العلوم الطبيعية

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ ، لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ . . خَضَعَ لَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَٰلِكَ . . فَٱفْزَعُوا إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ » ، ويُروىٰ : « إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ »(١) .

وليسَ في هـٰذا ما يوجبُ إنكارَ علمِ الحسابِ المعرِّفِ لمسيرِ الشمسِ والقمرِ ، واجتماعِهِما أوْ مقابلتِهِما علىٰ وجهٍ مخصوصٍ .

أمَّا قولُهُ عليهِ السلامُ : (ولـٰكنَّ اللهَ إذا تجلَّىٰ لشيءٍ . . خضعَ لهُ) . . فليسَ توجدُ هـٰذهِ الزيادةُ في الصِّحاحِ أصلاً(٢) .

هـٰذا حكمُ الرياضيَّاتِ وآفتُها .

بيان علوم المنطقيات

وأمَّا المنطقيَّاتُ : فلا يتعلَّقُ منها شيءٌ بالدِّينِ نفياً

(١) رواه البخاري (١٠٤٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٣١/١) ، والنسائي (١٥٠/٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٢) الزيادة رواها الحاكم في « المستدرك » (٣٣١/١) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، بلفظ : (خشع) بدل (خضع) .

وإثباتاً ، بلْ هِيَ النَظَرُ في طرقِ الأدلَّةِ والمقاييسِ ، وشروطِ مقدِّماتِ البرهانِ ، وكيفيَّةِ تركيبِها ، وشروطِ الحدِّ الصحيحِ ، وكيفيَّةِ ترتيبِهِ ، وأنَّ العلمَ : إمَّا تصوُّرٌ وسبيلُ معرفتِهِ الحدُّ ، وإمَّا تصديقٌ وسبيلُ معرفتِهِ البرهانُ .

لا مسوغ لإنكار علم المنطق شرعاً

وليسَ في هٰذا ما ينبغي أنْ يُنكَرَ ، بلْ هُوَ مِنْ جنسِ ما ذكرَهُ المتكلِّمونَ وأهلُ النظرِ في الأدلَّةِ ، وإنَّما يفارقونَهُمْ بالعباراتِ والِاصطلاحاتِ ، وبزيادةِ الِاستقصاءِ في التفريعاتِ والتشعيباتِ .

ومثالُ كلامِهِمْ فيها قولُهُمْ : إذا ثَبَتَ أنَّ كلَّ (أ) (ب) . . لزِمَ أنَّ بعضَ (ب) (أ) أيْ : إذا ثبتَ أنَّ كلَّ إنسانٍ حيوانٌ . . لزِمَ أنَّ بعضَ الحيوانِ إنسانٌ ، ويعبِّرونَ عنْ هٰذا بأَنَّ الموجَبةَ الكليَّةَ تنعكسُ موجَبةً جزئيَّةً .

وأيُّ تعلُّقٍ لهٰذا بمهمَّاتِ الدِّين حتَّىٰ يُجحَدَ ويُنكَرَ ؟!

وإذا أُنكِرَ . . لمْ يحصلْ مِنْ إنكارِهِ عندَ أهلِ المنطقِ إلَّا سوءُ الِاعتقادِ في عقلِ المنكِرِ ، بلْ في دينِهِ الذي يزعُمُ أنَّهُ موقوفٌ علىٰ مثلِ هٰذا الإنكارِ .

نعمْ ؛ لهُمْ نوعٌ مِنَ الظلمِ في هٰذا العلمِ ؛ وهُوَ أنَّهُمْ

يَجمعونَ للبرهانِ شروطاً يُعلَمُ أنَّها تورثُ اليقينَ لا محالةَ ، لٰكنَّهُمْ عندَ الِانتهاءِ إلى المقاصدِ الدينيَّةِ ما أمكنَهُمُ الوفاءُ بتلكَ الشروطِ ، بلْ تساهلُوا غايةَ التساهلِ .

من بعض آفات علم المنطق : ظلم الدين بالتساهل في برهان المقاصد الدينية

۞ ۞

وربَّما ينظرُ في المنطقِ أيضاً مَنْ يستحسنُهُ ويراهُ واضحاً ، فيَظُنُّ أنَّ ما يُنقَلُ عنهُمْ مِنَ الكفريَّاتِ مؤيَّدٌ بمثلِ تلكَ البراهينِ ، فيستعجلُ بالكفرِ قبلَ الِانتهاءِ إلى العلومِ الإلٰهيَّةِ ، فهٰذهِ الآفةُ أيضاً متطرِّقةٌ إليهِ .

استحسان المنطق قد يوقع في استحسان كفريات الفلسفة الممزوجة به

۞ ۞

وأمَّا الطبيعيَّاتُ : فهُوَ بحثٌ عنْ أجسامِ عالَمِ السماواتِ وكواكبِها ، وما تحتَها مِنَ الأجسامِ المفردةِ ؛ كالماءِ ، والهواءِ ، والترابِ ، والنارِ ، وعنِ الأجسامِ المركَّبةِ ؛ كالحيوانِ ، والنباتِ ، والمعادنِ ، وعنْ أسبابِ تغيُّرِها وٱستحالتِها وٱمتزاجِها .

حقيقة علم الطبيعيات وما يبحثه

۞

وذٰلكَ يضاهي بحثَ الطبيبِ عنْ جسمِ الإنسانِ ، وأعضائِهِ الرئيسةِ والخادمةِ ، وأسبابِ ٱستحالةِ مِزاجِها .

علم الطبيعيات كعلم الطب فلا ينكر إلا مسائل معينة منه

وكما ليسَ مِنْ شرطِ الدِّينِ إنكارُ علمِ الطبِّ . . فليسَ مِنْ شرطِهِ أيضاً إنكارُ ذٰلكَ العلمِ إلَّا في مسائلَ معيَّنةٍ ذكرْناها

في كتابِ « تهافتِ الفلاسفةِ » ، وما عداها ممَّا يجبُ المخالفةُ فيها ؛ فعندَ التأمُّلِ يتبيَّنُ أنَّها مندرجةٌ تحتَها[1] .

أصل جملة علم الطبيعيات

وأصلُ جملتِها : أنْ تعلمَ أنَّ الطبيعةَ مسخَّرةٌ للهِ تعالىٰ ، لا تعملُ بنفسِها ، بلْ هِيَ مستعمَلَةٌ مِنْ جهةِ فاطرِها ، فالشمسُ والقمرُ والنجومُ والطبائعُ مسخَّراتٌ بأمرِهِ ، لا فعلَ لشيءٍ منها بذاتِهِ عنْ ذاتِهِ .

حقيقة علم الإلـٰهيات وما يشتمل عليه

وأمَّا الإلـٰهيَّاتُ : ففيهـا أكثرُ أغاليطِهِمْ ، فمـا قَدَروا على الوفـاءِ بالبراهينِ علىٰ ما شـرطوهُ في المنطـقِ ؛ ولذٰلكَ كَثُرَ الاختلافُ بينَهُمْ فيهِ ، ولقدْ قرُبَ مذهبُ أرسطاطاليسَ فيها مِنْ مذاهبِ الإسلاميّينَ علىٰ ما نقلَهُ الفارابيُّ وابنُ سينا .

(١) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « تهافت الفلاسفة » (ص٢٣٥ ـ ٢٣٦) : (وإنما نخالفهم من جملة هـٰذه العلوم في أربع مسائل : الأولىٰ : حكمهم بأن هـٰذا الاقتران المشاهَد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران تلازم بالضرورة ، فليس في المقدور ولا في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب ، ولا وجود المسبب دون السبب . الثانية : قولهم : إن النفوس الإنسانية جواهر قائمة بأنفسها ليست منطبعة في الجسم . . . الثالثة : قولهم : إن هـٰذه النفوس يستحيل عليها العدم . الرابعة : قولهم : يستحيل رد هـٰذه النفوس إلى الأجساد) ثم بدأ بالرد علىٰ كل واحدة منها .

سبب تأليف كتاب « تهافت الفلاسفة »

ولـٰكنَّ مجموعَ ما غلِطوا فيهِ يرجِعُ إلىٰ عشرينَ أصلاً ، يجبُ تكفيرُهُمْ في ثلاثةٍ منْها ، وتبديعُهُمْ في سبعةَ عشرَ[1] ، ولإبطالِ مذهبِهِمْ في هـٰذهِ المسائلِ العشرينَ صنَّفْنا كتابَ « التهافتِ » .

❁ ❁

المسائل الثلاث المكفرة للفلاسفة

أمَّا المسائلُ الثلاثُ . . فقدْ خالفوا فيها كافَّةَ الإسلاميِّينَ ؛ وذٰلكَ في قولِهِمْ :

ـ إنَّ الأجسادَ لا تُحشَرُ ، وإنَّما المثابُ والمعاقبُ هِيَ الأرواحُ المجرَّدَةُ ، والعقوباتُ روحانيَّةٌ لا جسمانيَّةٌ .

ولقدْ صدَقوا في إثباتِ الروحانيَّةِ ؛ فإنَّها كائنةٌ أيضاً ، ولـٰكنْ كَذَبوا في إنكارِ الجسمانيَّةِ ، وكفروا بالشريعةِ فيما نطقوا بهِ .

ـ ومِنْ ذٰلكَ قولُهُمْ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يعلمُ الكلِّياتِ دونَ الجزئيَّاتِ ؛ وهُوَ أيضاً كفرٌ صريحٌ ، بلِ الحقُّ أنَّهُ لا يعزُبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ .

ـ ومِنْ ذٰلكَ قولُهُمْ بقِدَمِ العالمِ وأزليَّتِهِ .

---

(١) تبديعهم : تضليلهم في سائر المسائل ؛ لأنهم تخبّطوا فيها ، ولعله عبَّر بالتبديع لأن بعض مبتدعة الإسلاميين وافقهم فيها والله أعلم . وانظر « تهافت الفلاسفة » (ص ٨٦) .

فلمْ يذهبْ أحدٌ مِنَ المسلمينَ إلىٰ شيءٍ مِنْ هٰذهِ المسائلِ (١) .

❁ ❁ ❁

عدم التكفير بغير الثلاث

وأمَّا ما وراءَ ذٰلكَ مِنْ نفيهِمُ الصفاتِ ، وقولِهِمْ : إنَّهُ عالمٌ بالذاتِ لا بعلمٍ زائدٍ ، وما يجري مَجْراهُ . . فمذهبُهُمْ فيها قريبٌ مِنْ مذهبِ المعتزلةِ ، ولا يجبُ تكفيرُ المعتزلةِ بمثلِ ذٰلكَ .

وقدْ ذكرْنا في كتابِ « فيصَلِ التفرقةِ بينَ الإسلامِ والزندقةِ » ما يتبيَّنُ بهِ فسادُ رأيِ مَنْ يتسارعُ إلى التكفيرِ في كلِّ ما يخالفُ مذهبَهُ (٢) .

حقيقة علم السياسيات وجملة ما يشتمل عليه

وأمَّا السياسيَّاتُ : فجميعُ كلامِهِمْ فيها يرجِعُ إلى الحِكَمِ المصلحيَّةِ المتعلِّقَةِ بالأمورِ الدنيويَّةِ ، والإيالةِ السلطانيَّةِ (٣) .

وإنَّما أخذُوها مِنْ كتبِ اللهِ تعالى المنزَّلةِ على الأنبياءِ ،

---

(١) جمعها بعضهم فقال :

بثلاثة كفر الفلاسفةُ العِدا ... إذ أنكروها وهْيَ حقّاً مثبَتة
علمٌ بجزئيٍّ حدوثُ عَوالمٍ ... حشرٌ لأجساد وكانت ميّتة

(٢) انظر « فيصل التفرقة » (ص ٥١) وما بعدها .

(٣) الإيالة : الإصلاح والسياسة .

ومِنَ الحكَمِ المأثورةِ عنْ سلفِ الأنبياءِ .

العلوم الخُلقيَّة وممن استمدوها وكيف مزجوها بعلمهم لترويج باطلهم

وأمَّا الخُلقيَّةُ : فجميعُ كلامِهِمْ فيها يرجعُ إلىٰ حصْرِ صفاتِ النفسِ وأخلاقِها ، وذكرِ أجناسِها وأنواعِها ، وكيفيَّةِ معالجتِها ومجاهدتِها .

وإنَّما أخذُوها مِنْ كلامِ الصوفيَّةِ ؛ وهمُ المتألِّهونَ والمثابرونَ علىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ مخالفةِ الهوىٰ ، وسلوكِ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ بالإعراضِ عن ملاذِّ الدنيا ، وقدِ ٱنكشفَ لهُمْ في مجاهداتِهِمْ مِنْ أخلاقِ النفسِ وعيوبِها ، وآفاتِ أعمالِها ما صرَّحُوا بها ، فأخذَها الفلاسفةُ ومزَجوها بكلامِهِمْ ؛ توسُّلاً بالتجمُّلِ بها إلىٰ ترويجِ باطلِهِمْ .

المتألهون الحقيقيون أوتاد الأرض

ولقدْ كانَ في عصرِهِمْ ـ بل في كلِّ عصرٍ ـ جماعةٌ مِنَ المتألِّهينَ لا يُخْلي اللهُ تعالى العالَمَ عنْهُمْ ، فإنَّهُمْ أوتادُ الأرضِ ؛ ببركاتِهِمْ تنزلُ الرحمةُ علىٰ أهلِ الأرضِ كما وردَ في الخبرِ ؛ حيثُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بِهِمْ يُمْطَرُونَ ، وَبِهِمْ يُرْزَقُونَ »(١) .

---

(١) رواه أبو داوود في « المراسيل » (٣٠٠) عن أبي قلابة رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

ومنْهُمْ كانَ أصحابُ الكهفِ ، وكانوا في سالفِ الأزمنةِ علىٰ ما نطقَ بهِ القرآنُ .

مزجهم كلام النبوة بكلام الصوفية تولد منه آفتان

فتولَّدَ مِنْ مزجِهِمْ كلامَ النبوَّةِ وكلامَ الصوفيَّةِ بكتبِهِمْ آفتانِ : آفةٌ في حقِّ القابلِ ، وآفةٌ في حقِّ الرادِّ .

أولى الآفتين في حق الراد وعلاجها

أمَّا آفتُهُ في حقِّ مَنْ ردَّهُ . . فعظيمةٌ ؛ إذْ ظنَّتْ طائفةٌ مِنَ الضعفاءِ أنَّ ذٰلكَ الكلامَ إذْ كانَ مدوَّناً في كتبِهِمْ ، وممزوجاً بباطلِهِمْ . . ينبغي أنْ يُهجَرَ ولا يُذكَرَ ، بلْ ينكرُ علىٰ كلِّ مَنْ يذكرُهُ ؛ لأنَّهُمْ إذا لمْ يسمعوهُ أوَّلاً إلَّا منْهُمْ . . سبقَ إلىٰ عقولِهِمُ الضعيفةِ أنَّهُ باطلٌ ؛ لأنَّ قائلَهُ مُبْطِلٌ ، كالذي يسمعُ مِنَ النصرانيِّ قولَهُ : (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، عيسىٰ رسولُ اللهِ) فينكرُهُ ويقولُ : هٰذا كلامُ النصارىٰ ، ولا يتوقَّفُ ريثَما يتأمَّلُ : أنَّ النصرانيَّ كافرٌ بٱعتبارِ هٰذا القولِ ، أوْ بٱعتبارِ إنكارِهِ نبوَّةَ محمَّدٍ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ؟!

فإنْ لمْ يكنْ كافراً إلَّا بٱعتبارِ إنكارِهِ . . فلا ينبغي أنْ يخالفَ في غيرِ ما هُوَ كافرٌ بِهِ ممَّا هُوَ حقٌّ في نفسِهِ ، وإنْ كانَ أيضاً حقّاً عندَهُ .

وهٰذِهِ عادةُ ضعفاءِ العقولِ ، يعرفونَ الحقَّ بالرجالِ ، لا

الرجالَ بالحقِّ ، والعاقلُ يقتدي بسيِّدِ العقلاءِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنْهُ حيثُ قالَ : (لا تعرفِ الحقَّ بالرجالِ ، اعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ)(١) .

اعرف الحق تعرف أهله

فالعاقلُ يعرفُ الحقَّ ، ثُمَّ ينظرُ في نفْسِ القولِ ؛ فإنْ كانَ حقّاً . . قبلَهُ ، سواءً كانَ قائلُهُ مبطلاً أوْ محقّاً ، بلْ ربَّما يحرصُ على انتزاعِ الحقِّ مِنْ تضاعيفِ كلامِ أهلِ الضلالِ عالِماً بأنَّ معدِنَ الذهبِ الرَّغامُ(٢) .

ولا بأسَ على الصرَّافِ إنْ أدخلَ يدَهُ في كيسِ القَلَّابِ(٣) وانتزعَ الإبريزَ الخالصَ مِنَ الزيفِ والبَهْرَجِ مهما كانَ واثقاً ببصيرتِهِ ؛ فإنَّما يُزجَرُ عنْ معاملةِ القلَّابِ القَرَويُّ دونَ الصيرفيِّ ، ويُمنَعُ مِنْ ساحلِ البحرِ الأخرقُ دونَ السبَّاحِ الحاذقِ ، ويُصَدُّ عنْ مسِّ الحيَّةِ الصبيُّ دونَ المعزِّمِ البارعِ(٤) .

الزجر عن مطالعة كتب أهل الضلال

ولعَمري ؛ لمَّا غلبَ على أكثرِ الخَلقِ ظنُّهُمْ بأنفسِهِمُ الحذاقةَ والبراعةَ ، وكمالَ العقلِ وتمامَ الآلةِ في تمييزِ الحقِّ

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢١١/٣) .
(٢) الرغام : التراب ، والعبارة شطر من قول المتنبي كما في « ديوانه » (٧٠/٤) :
وما أنا فيهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغامُ .
(٣) القلّاب : مَن يخلط في كيسه الخالص بالزيوف من الدراهم .
(٤) المعزّم : قارئ العزائم ؛ وهي الرُّقَى .

عنِ الباطلِ ، والهدىٰ عنِ الضلالةِ . . وجبَ حسمُ البابِ في زجرِ الكافَّةِ عنْ مطالعةِ كتبِ أهلِ الضلالِ ما أمكنَ ؛ إذْ لا يسلمونَ عنِ الآفةِ الثانيةِ التي سنذكرُها أصلاً وإنْ سلِموا عنْ هـٰذهِ الآفةِ التي ذكرْناها .

۞ ۞

الردُّ علىٰ منِ اعترضَ علىٰ كلماتٍ مبثوثةٍ في كتبِ الإمامِ الغزاليِّ

ولقدِ اُعترَضَ علىٰ بعضِ الكلماتِ المبثوثةِ في تصانيفِنا في أسرارِ علومِ الدِّينِ طائفةٌ مِنَ الذينَ لمْ تستحكمْ في العلومِ مرائرُهُمْ (١) ، ولمْ تنفتحْ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ المذاهبِ بصائرُهُمْ ، وزعمتْ أنَّ تلكَ الكلماتِ مِنْ كلامِ الأوائلِ ؛ معَ أنَّ بعضَها مِنْ مولَّداتِ الخواطرِ ، ولا يبعدُ أنْ يقعَ الحافرُ على الحافرِ ، وبعضُها يوجدُ في الكتبِ الشرعيَّةِ ، وأكثرُها موجودٌ معناهُ في كتبِ الصوفيَّةِ .

وهبْ أنَّها لمْ توجدْ إلَّا في كتبِهِمْ ؛ فإذا كانَ ذٰلكَ الكلامُ معقولاً في نفسِهِ ، مؤيَّداً بالبرهانِ ولمْ يكنْ علىٰ مخالفةِ الكتابِ والسنَّةِ . . فلِمَ ينبغي أن يُهجَرَ ويُترَكَ ؟!

ما يترتبُ علىٰ هجرِ الحقِّ الذي سبقَ إليهِ الخاطرُ مبطلٌ

فلوْ فتحْنا هـٰذا البابَ ، وتطرَّقْنا إلىٰ أنْ يُهجَرَ كلُّ حقٍّ سبقَ إليهِ خاطرُ مبطِلٍ . . للزمْنا أنْ نهجرَ كثيراً مِنَ الحقِّ ، وللزمْنا أنْ نهجرَ جملةً مِنْ آياتِ القرآنِ ، وأخبارِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) المِرَّة : العقل .

وسلَّمَ ، وحكاياتِ السلفِ ، وكلماتِ الحكماءِ والصوفيَّةِ ؛ لأنَّ صاحبَ كتابِ « إخوانِ الصَّفا » أوردَها في كتابِهِ مستشهِداً بها ، ومستدرِجاً قلوبَ الحمقىٰ بواسطتِها إلىٰ باطلِهِ ، ويتداعىٰ ذٰلكَ إلىٰ أنْ يستخرجَ المبطلونَ الحقَّ مِنْ أيدينا بإيداعِهِمْ إيَّاهُ في كتبِهِمْ .

أقل درجات العالم تميزه عن العامي الغمر

وأقلُّ درجاتِ العالِمِ : أنْ يتميَّزَ عنِ العامِّيِّ الغُمْرِ[1] ؛ فلا يعافُ العسلَ وإنْ وجدَهُ في مِحْجَمَةِ الحجَّامِ ، ويتحقَّقُ أنَّ المحجمةَ لا تغيِّرُ ذاتَ العسلِ ؛ فإنَّ نَفْرةَ الطبعِ عنْهُ مبنيَّةٌ علىٰ جهْلٍ عامِّيٍّ ، منشؤُهُ : أنَّ المحجمةَ إنَّما صِيغَتْ للدمِ المستقذَرِ ، فيظنُّ أنَّ الدمَ مستقذرٌ لكونِهِ في المحجمةِ ، ولا يدري أنَّهُ مستقذرٌ لصفةٍ في ذاتِهِ ، فإذا عُدِمَتْ هٰذهِ الصفةُ في العسلِ . . فكونُهُ في ظرفِهِ لا يُكسبُهُ قوَّةَ تلكَ الصفةِ ، فلا ينبغي أنْ يُوجَبَ لهُ الِاستقذارُ .

غاية الضلال معرفة الحق بالرجال

وهٰذا وهمٌ باطلٌ ، وهُوَ غالبٌ علىٰ أكثرِ الخَلْقِ ، فمهما نسبْتَ الكلامَ وأسندْتَهُ إلىٰ قائلٍ حَسُنَ فيهِ ٱعتقادُهُمْ . . قبلوهُ وإنْ كانَ باطلاً .

---

(١) الغمر : الذي ليس له تجربة للأمور ، انظر « ميزان العمل » (ص ٢٧٥) .

وإنْ أسندْتَهُ إلىٰ مَنْ ساءَ فيهِ ٱعتقادُهُمْ . . ردُّوهُ وإنْ كانَ حقّاً ، فأبداً يعرفونَ الحقَّ بالرجالِ ، ولا يعرفونَ الرجالَ بالحقِّ ، وهُوَ غايةُ الضلالِ .

هٰذهِ آفةُ الردِّ .

ثانية الآفتين في حق القابل

الآفـةُ الثانيـةُ : آفةُ القَبـولِ ؛ فإنَّ مَـنْ نظرَ فـي كتبِهِمْ كـ « إخـوانِ الصَّفا » وغيـرِهِ ، فرأىٰ ما مزَجـوهُ بكلامِهِمْ مِنَ الحكَمِ النبويَّةِ والكلماتِ الصوفيَّةِ . . ربَّما ٱستحسَنَها وقبِلَها ، وحَسُنَ ٱعتقادُهُ فيها ، فيسـارعُ إلىٰ قَبولِ باطلِهِمُ الممزوجِ بهِ بحسـنِ ظنٍّ حصلَ ممَّا رآهُ وٱستحسَنَهُ ، وذٰلكَ نوعُ ٱستدراجٍ إلى الباطلِ .

ضرب أمثلة متنوعة للنهي عن كتبهم لغير العلماء

ولأجلِ هٰذهِ الآفةِ يجبُ الزجرُ عنْ مطالعةِ كتبِهِمْ ؛ لِمَا فيها مِنَ الخطرِ والغَرَرِ ، وكما يجبُ صونُ مَنْ لا يُحسنُ السباحةَ عنْ مزالقِ الشُّطوطِ . . يجبُ صونُ الخَلْقِ عنْ مطالعةِ تلكَ الكتبِ .

وكما يجبُ صونُ الصبيانِ عنْ مسِّ الحيَّاتِ . . يجبُ صونُ الأسماعِ عنْ تخليطِ تلكَ الكلماتِ ، وكما يجبُ على المعزِّمِ ألَّا يمسَّ الحيَّةَ بينَ يدَي ولدِهِ الطفلِ إذا علمَ أنَّهُ سيقتدي بهِ

العالم الراسخ يُظهر الامتناع مما فيه خطر على العامة

ويظنُّ أنَّهُ مثلُهُ ، بلْ يجبُ عليهِ أنْ يحذِّرَهُ منْهُ بأنْ يَحذَرَ هُوَ في نفسِهِ ولا يمسَّها بينَ يديهِ . . فكذٰلكَ يجبُ على العالِمِ الراسخِ مثلُهُ .

وكما أنَّ المعزِّمَ الحاذقَ إذا أخذَ الحيَّةَ وميَّزَ بينَ التِّرْياقِ والسُّمِّ ، فٱستخرجَ منْها التِّرْياقَ وأبطلَ السُّمَّ . . فليسَ لهُ أنْ يشحَّ بالترياقِ على المحتاجِ إليهِ .

وكذٰلكَ الصرَّافُ الناقدُ البصيرُ إذا أدخلَ يدَهُ في كيسِ القَلَّابِ ، وأخرجَ منْهُ الإبريزَ الخالصَ ، وطرحَ الزيفَ والبهرجَ . . فليسَ لهُ أنْ يشحَّ بالجيِّدِ المرضيِّ علىٰ مَن يحتاجُ إليهِ ؛ كذٰلكَ العالِمُ .

وكما أنَّ المحتاجَ إلى الترياقِ إذا ٱشمأزَّتْ نفسُهُ منْهُ ؛ حيثُ علِمَ أنَّهُ مستخرَجٌ مِنَ الحيَّةِ التي هِيَ مركزُ السُّمِّ . . وجبَ تعريفُهُ .

والفقيرُ المضطرُّ إلى المالِ إذا نفرَ عنْ قَبولِ الذهبِ المستخرَجِ مِنْ كيسِ القَلَّابِ . . وجبَ تنبيهُهُ علىٰ أنَّ نَفْرتَهُ جهلٌ محضٌ هُوَ سببُ حِرمانِهِ الفائدةَ التي هِيَ مطلبُهُ .

وتحتَّمَ تعريفُهُ : أنَّ قُرْبَ الجوارِ بينَ الزيفِ والجيِّدِ لا

جوارُ الحقِّ للباطل لا يجعل الحقَّ باطلاً

يجعلُ الجيّدَ زيفاً ، كما لا يجعلُ الزيفَ جيّداً ؛ فكذٰلكَ قربُ الجـوارِ بينَ الحقِّ والباطـلِ لا يجعلُ الحـقَّ باطلاً ، كما لا يجعلُ الباطلَ حقّاً .

فهٰذا مقدارُ ما أردْنا ذكرَهُ منْ آفةِ الفلسفةِ وغائلتِها .

❋ ❋ ❋

القول في مذهب التعليم وغائلته

ثُمَّ إنِّي لمَّا فرغتُ مِنْ علمِ الفلسفةِ وتحصيلِهِ وتفهُّمِهِ وتزييفِ ما تَزيَّفَ منْهُ .. علمتُ أنَّ ذٰلكَ أيضاً غيرُ وافٍ بكمالِ الغرضِ ، وأنَّ العقلَ ليسَ مستقلّاً بالإحاطةِ بجميعِ المطالبِ ، ولا كاشفاً للغطاءِ عنْ جميعِ المعضلاتِ .

ظهور الباطنية وضرورة كشف حقيقة مذهبهم

وكانَ قدْ نبغَتْ نابغةُ التعليميَّةِ [1] ، وشاعَ بينَ الخلقِ تحدُّثُهُمْ بمعرفةِ الأمورِ مِنْ جهةِ الإمامِ المعصومِ القائمِ بالحقِّ ؛ فعَنَّ لي أنْ أبحثَ عنْ مقالتِهِمْ ؛ لأَطَّلعَ علىٰ ما في كنانتِهِمْ .

ثُمَّ ٱتَّفقَ أنْ وردَ عليَّ أمرٌ جازمٌ مِنْ حضرةِ الخلافةِ بتصنيفِ كتابٍ يكشِفُ عنْ حقيقةِ مذهبِهِمْ [2] ، فلمْ يسعْني مدافعتُهُ ، وصارَ ذٰلكَ مستحِثّاً مِنْ خارجٍ ، ضميمةً للباعثِ الأصليِّ مِنَ الباطنِ .

---

(١) والمقصود بالتعليم هنا : هو مذهب الباطنية القائلين بوجوب التعليم ، والأخذ عن المعلم المعصوم .

(٢) وكان الطلب من الخليفة ببغداد المستظهر بالله (٤٨٦ ـ ٥١٢ هـ) ، فألف الإمام كتابه « فضائح الباطنية » ، ولقبه بـ « المستظهريّ » .

جمع كتبهم ومقالاتهم للرد عليهم

فأنتدبتُ لطلبِ كتبِهِمْ وجمعِ مقالاتِهِمْ ، وكانَ قدْ بلغَني بعضُ كلماتِهِمُ المستحدَثَةِ التي ولَّدَتْها خواطرُ أهلِ العصرِ ، لا على المنهاجِ المعهودِ مِنْ سلفِهِمْ ، فجمعتُ تلكَ الكلماتِ ، ورتَّبتُها ترتيباً محكَماً مقارناً للتحقيقِ ، وأستوفيتُ الجوابَ عنْها ؛ حتَّىٰ أنكرَ بعضُ أهلِ الحقِّ مبالغتي في تقريرِ حُجَّتِهِمْ ، وقالَ : هٰذا سَعْيٌ لهُمْ ؛ فإنَّهُمْ كانوا يعجِزونَ عنْ نُصرةِ مذهبِهِمْ بمثلِ هٰذهِ الشبهاتِ لولا تحقيقُكَ لها ، وترتيبُك إيَّاها !!

إنكار الإمام أحمد على المحاسبي في تصنيفه للرد على المعتزلة وفائدة الخلاف

وهٰذا الإنكارُ مِنْ وجهٍ حقٌّ ؛ فلقدْ أنكرَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ على الحارثِ المحاسبيِّ ـ رحمَهُما اللهُ ـ تصنيفَهُ في الردِّ على المعتزلةِ .

فقالَ الحارثُ : الردُّ على البدعةِ فرْضٌ .

فقالَ أحمدُ : نعمْ ؛ ولٰكنْ حكيتَ شبهتَهُمْ أوَّلاً ثُمَّ أجبتَ عنْها ، فبِمَ تأمنُ أنْ يطالعَ الشبهةَ مَنْ يعلَقُ ذٰلكَ بفهمِهِ ، ولا يلتفتُ إلى الجوابِ ، أوْ ينظرُ في الجوابِ ولا يفهمُ كُنْهَهُ ؟! [1] .

(١) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/١٦٨) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/٢١١) .

الرد على شبهة من أنكر فائدة التصنيف للرد على المبتدعة

وما ذكرَهُ أحمدُ حقٌّ ؛ ولٰكنْ في شبهةٍ لمْ تنتشرْ ولمْ تَشتهرْ ، فأمَّا إذا ٱنتشرتْ . . فالجوابُ عنْها واجبٌ ، ولا يمكنُ الجوابُ عنْها إلَّا بعدَ الحكايةِ .

بيان المراد من ذكر شبههم وأنه ليس بالخب ولا يخدعه

نعمْ ؛ ينبغي أَلَّا يتكلَّفَ شبهةً لمْ يتكلَّفُوها ، ولمْ أتكلَّفْ أنا ذٰلكَ ، بلْ كنتُ قدْ سمعتُ تلكَ الشبهةَ مِنْ واحدٍ مِنْ أصحابي المختلِفينَ إليَّ بعدَ أنْ كانَ قدِ ٱلتحقَ بهِمْ ، وٱنتحلَ مذهبَهُمْ ، وحكىٰ أنَّهُمْ يضحَكُونَ علىٰ تصانيفِ المصنِّفينَ في الردِّ عليهِمْ ، ويقولونَ : إنَّهُمْ لمْ يفهموا بعدُ حُجَّتَهُمْ ، ثُمَّ ذكرَ تلكَ الحُجَّةَ وحكاها عنْهُمْ ، فلمْ أرضَ لنفسي أنْ يُظَنَّ بي الغفلةُ عنْ أصلِ حُجَّتِهِمْ ؛ فلذٰلكَ أوردْتُها ، ولا أنْ يُظَنَّ بي أنِّي - وإنْ سمعتُها - لمْ أفهمْها ؛ فلذٰلكَ قرَّرْتُها ، والمقصودُ أنِّي قرَّرْتُ شبهتَهُمْ إلىٰ أقصى الإمكانِ ، ثُمَّ أظهرتُ فسادَها بغايةِ البرهانِ .

كشف خداعهم بدعواهم أنه لا بد من معلم معصوم

والحاصلُ : أنَّهُ لا حاصلَ عندَهُمْ ، ولا طائلَ لكلامِهِمْ ، ولولا سوءُ نُصرةِ الصديقِ الجاهلِ . . لَمَا ٱنتهتْ تلكَ البدعةُ معَ ضعفِها إلىٰ هٰذهِ الدرجةِ ، ولٰكنَّ شدةَ التعصُّبِ دعتِ الذَّابِّينَ عنِ الحقِّ إلىٰ تطويلِ النزاعِ معَهُمْ في مقدِّماتِ

كلامِهِـــم ، وإلىٰ مجاحدتِهِمْ في كلِّ ما نطقوا بهِ ، فجاحدوهُمْ فـــي دعواهُمُ الحاجةَ إلى التعلُّـــمِ وإلى المعلِّمِ ، وفي دعواهُمْ أنَّـــهُ لا يَصْلُحُ كلُّ معلِّمٍ ، بلْ لا بدَّ مِنْ معلِّمٍ معصومٍ ، وظهرتْ حُجَّتُهُـــمْ في إظهارِ الحاجةِ إلى التعلُّمِ وإلى المعلِّمِ ، وضَعُفَ قولُ المنكرينَ في مقابلتِهِ ، فٱغترَّ بذٰلكَ جماعةٌ وظنُّوا أنَّ ذٰلكَ مِنْ قوَّةِ مذهبِهِمْ وضعْفِ المذهبِ المخالفِ لهُ ، ولمْ يفهموا أنَّ ذٰلكَ لضعفِ ناصرِ الحقِّ ، وجهلِهِ بطريقِهِ .

❁ ❁

رد الإمام الغزالي عليهم وإفحامه لهم

بلِ الصوابُ : الِاعترافُ بالحاجةِ إلىٰ معلِّمٍ ، وأنَّهُ لا بدَّ وأنْ يكونَ المعلِّمُ معصوماً ، ولٰكنَّ معلِّمَنا المعصومَ . . هُوَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فإذا قالوا : هُوَ ميِّتٌ . . فنقولُ : ومعلِّمُكُمْ غائبٌ .

فإذا قالوا : معلِّمُنا قدْ علَّمَ الدعاةَ ، وبثَّهُمْ في البلادِ ، وهُوَ ينتظرُ مراجعتَهُم إنِ ٱختلفوا ، أوْ أشكلَ عليهِمْ مشكِلٌ .

فنقولُ : ومعلِّمُنا قدْ علَّمَ الدعاةَ ، وبثَّهُمْ في البلادِ ، وأكملَ التعليمَ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ، وبعدَ كمالِ التعليمِ لا يضرُّ موتُ المعلِّمِ ؛ كما لا يضرُّ غَيبتُهُ .

❁ ❁ ❁

جواب شبهتهم بإعمال الاجتهاد لأنه مظنة الخلاف فكيف يعمل به

فبقيَ قولُهُمْ : كيفَ تَحكُمونَ فيما لمْ تسمعوهُ ؛ أبالنصِّ ولمْ تسمعوهُ ، أمْ بالِاجتهادِ بالرأيِ وهُوَ مَظِنَّةُ الخلافِ ؟

فنقولُ : نفعلُ ما فعلَهُ معاذٌ إذْ بعثَهُ رسولُ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلى اليمنِ ، وأمرَهُ أنْ يحكمَ بالنصِّ عندَ وجودِهِ ، وبالِاجتهادِ عندَ عدمِهِ[1] .

بلْ كما يفعلُهُ دعاتُهُمْ إذا بَعُدوا عنِ الإمامِ إلىٰ أقاصي البلادِ ، إذْ لا يمكنُهُ أنْ يحكمَ بالنصِّ ؛ فإنَّ النصوصَ المتناهيةَ لا تستوفي الوقائعَ غيرَ المتناهيةِ ، ولا يمكنُهُ الرجوعُ في كلِّ واقعةٍ إلىٰ بلدةِ الإمامِ ، وأنْ يقطعَ المسافةَ ويرجعَ ، فيكونُ المستفتي قدْ ماتَ ، وفاتَ الِانتفاعُ بالرجوعِ .

مثالان بيّنان لإعمال الاجتهاد

فمَنْ أشكلَتْ عليهِ القِبلةُ . . ليسَ لهُ طريقٌ إلَّا أنْ يصلِّيَ بٱجتهادِهِ ؛ إذْ لوْ سافرَ إلىٰ بلدِ الإمامِ ليعرِّفَهُ القِبلةَ . . يفوتُ وقتُ الصلاةِ .

فإذا جازَتِ الصلاةُ إلىٰ غيرِ القبلةِ بناءً على الظنِّ ، ويقالُ : إنَّ المخطئَ في الِاجتهادِ لهُ أجرٌ واحدٌ ، وللمُصيبِ أجرانِ . . فكذٰلكَ في جميعِ المجتهَداتِ .

وكذٰلكَ أمرُ صرْفِ الزكاةِ إلى الفقيرِ ؛ فربَّما يظنُّهُ فقيراً

---

(١) رواه أبو داوود (٣٥٨٧) ، والترمذي (١٣٢٧) .

بٱجتهادِهِ وهُوَ غنيٌّ باطناً بإخفائِهِ مالَهُ ، فلا يكونُ مؤاخَذاً بهِ وإنْ أخطأَ ؛ لأنَّهُ لمْ يؤاخذْ إلَّا بموجِبِ ظنِّهِ .

فإنْ قالَ : ظنُّ مخالفِهِ كظنِّهِ .

كلٌّ مأمور باتباع ظنّ نفسه

فأقولُ : هُوَ مأمورٌ بٱتِّباعِ ظنِّ نفسِهِ ؛ كالمجتهدِ في القبلةِ يتَّبِعُ ظنَّهُ وإنْ خالفَهُ غيرُهُ .

فإنْ قالَ : فالمقلِّدُ يتَّبِعُ الشافعيَّ أو أبا حنيفةَ أو غيرَهُما ؟

حكم المقلد عند اختلاف المجتهدين

فأقولُ : والمقلِّدُ في القبلةِ عندَ الاشتباهِ إذا ٱختلفَ عليهِ المجتهدونَ . . كيفَ يصنعُ ؟

فسيقولُ : لهُ معَ نفسِهِ ٱجتهادٌ في معرفةِ الأفضلِ الأعلمِ بدلائلِ القبلةِ ، فيتَّبِعُ ذٰلكَ الاجتهادَ ، فكذٰلكَ في المذاهبِ .

ضرورة رد الخَلْق للاجتهاد عند الحاجة

وردَّ الخلْقَ إلى الاجتهادِ ضرورةَ الأنبياءُ والأئمَّةُ ، معَ العلْمِ بأنَّهُمْ قدْ يخطئونَ ، بلْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَنَا أَحْكُمُ بِٱلظَّاهِرِ ، وَٱللهُ يَتَوَلَّى ٱلسَّرَائِرَ » أي : أنا أحكمُ بغالبِ الظنِّ الحاصلِ مِنْ قولِ الشهودِ ، وربَّما أخطئُ فيهِ ، فلا سبيلَ إلى الأمنِ مِنَ الخطأ للأنبياءِ في مثلِ هٰذهِ المجتَهداتِ ، فكيفَ يُطمعُ في ذٰلكَ ؟

ولهُمْ هٰهنا سؤالانِ :

أحدُهُما : قولُهُمْ : هٰذا وإنْ صحَّ في المجتهَداتِ . . فلا يصحُّ في قواعدِ العقائدِ ؛ إذِ المخطئُ فيهِ غيرُ معذورٍ ، فكيفَ السبيلُ إليهِ ؟

شبهة الباطنية الأولىٰ : أن المجتهد في قواعد العقائد غير معذور

فأقولُ : قواعدُ العقائدِ يشتملُ عليها الكتابُ والسنَّةُ ، وما وراءَ ذٰلكَ مِنَ التفصيلِ والمتنازَعِ فيهِ . . يُعرَفُ الحقُّ فيهِ بالوزنِ بالقِسطاسِ المستقيمِ ؛ وهِيَ الموازينُ التي ذكرَها اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ ، وهِيَ خمسةٌ ذكرْتُها في كتابِ « القِسطاسِ المستقيمِ » .

الرد علىٰ تلك الشبهة بالموازين الشرعية

فإنْ قالَ : خصومُكَ يخالفونَكَ في ذٰلكَ الميزانِ .

شبهة : مخالفة الخصم للموازين والرد عليها

فأقولُ : لا يُتصوَّرُ أنْ يفهمَ ذٰلكَ الميزانَ ثُمَّ يخالفَ فيهِ ؛ إذْ لا يخالفُ فيهِ أهلُ التعليمِ ؛ لأنِّي ٱستخرجتُهُ مِنَ القرآنِ وتعلَّمتُهُ منْهُ ، ولا يخالفُ فيهِ أهلُ المنطقِ ؛ لأنَّهُ موافقٌ لِمَا شرطوهُ في المنطقِ غيرُ مخالفٍ لهُ ، ولا يخالفُ فيهِ المتكلِّمُ ؛ لأنَّهُ موافقٌ لِمَا يذكرُهُ في أدلَّةِ النظريَّاتِ ، وبهِ يُعرَفُ الحقُّ في الكلاميَّاتِ .

فإنْ قالَ : فإنْ كانَ في يدِكَ مثلُ هٰذا الميزانِ . . فلِمَ لا ترفعُ الخلافَ بينَ الخلْقِ ؟

شبهة : لم يرفع هٰذا الميزان الخلاف والرد عليها

فأقولُ : لوْ أصْغَوا إليَّ . . لرفعتُ الخلافَ بينَهُمْ ، وذكرتُ طريقَ رفْعِ الخلافِ في كتابِ « القسطاسِ المستقيمِ » ، فتأمَّلْهُ لتعلمَ أنَّهُ حقٌّ ، وأنَّهُ يرفعُ الخلافَ قطعاً لوْ أصغَوا ، ولا يصغونَ بأجمعِهِمْ ؛ بلْ قدْ أصغَىٰ إليَّ طائفةٌ ، فرفعتُ الخلافَ بينَهُمْ .

وإمامُكَ يريدُ رفعَ الخلافِ بينَهُمْ معَ عدَمِ إصغائِهِمْ ؛ فلِمَ لمْ يرفعْ إلى الآنَ ؟! ولِمَ لَمْ يرفعْ عليٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ وهُوَ رأسُ الأئمَّةِ ؟!

أَوَيدَّعي أنَّهُ يقدرُ علىٰ حمْلِ كافتِهِمْ على الإصغاءِ قهراً ؛ فلِمَ لمْ يحملْهُمْ إلى الآنَ ؟! ولأيِّ يومٍ أجَّلَهُ ؟! وهلْ حصلَ بينَ الخلْقِ بسببِ دعوتِهِ إلَّا زيادةُ خلافٍ وزيادةُ مخالفٍ ؟!

نعمْ ؛ كانَ يُخشىٰ مِنَ الخلافِ نوعٌ مِنَ الضررِ لا ينتهي إلىٰ سفْكِ الدماءِ ، وتخريبِ البلادِ ، وإيتامِ الأولادِ ، وقطْعِ الطرقِ ، والإغارةِ على الأموالِ .

وقدْ حدَثَ في العالَمِ مِنْ بركاتِ رفعِكُمُ الخلافَ مِنَ الخلافِ ما لمْ يكنْ بمثلِهِ عهْدٌ !!

الشبهة الثانية : لم يلزم المتحير الإصغاء إلى المؤلف دون غيره والرد عليها بأن مدعيها أولى بها

فإنْ قالَ : ٱدَّعيتَ أنَّكَ ترفعُ الخلافَ بينَ الخلقِ ، ولٰكنَّ المتحيِّرَ بينَ المذاهبِ المتعارضةِ ، والاختلافاتِ المتقابلةِ . .

لِمَ يلزمُهُ الإصغاءُ إليكَ دونَ خصمِكَ ، ولكَ خصومٌ يخالفونَكَ ، ولا فرْقَ بينَكَ وبينَهُمْ ؟

وهٰذا هُوَ سؤالُهُمُ الثاني .

قلب السؤال على الخصم وإقامة الحجة

فأقولُ : هٰذا أوّلاً ينقلبُ عليكَ ؛ فإنَّكَ إذا دعوتَ هٰذا المتحيّرَ إلىٰ نفسِكَ . . فيقولُ المتحيّرُ : بِمَ صرْتَ أوْلىٰ مِنْ مخالفيكَ ، وأكثرُ أهلِ العلمِ يخالفونَكَ ؟

فليتَ شِعْري ؛ بماذا تجيبُ ؟ أتجيبُهُ بأنْ تقولَ : إمامي منصوصٌ عليهِ ؟!

فمَنْ يصدِّقُكَ في دعوى النصِّ وهُوَ لمْ يسمعِ النصَّ مِنَ الرسولِ ؟ وإنَّما يسمعُ دعواكَ معَ تطابقِ أهلِ العلمِ على ٱختراعِكَ وتكذيبِكَ .

❁ ❁ ❁

مثال مفحم في الرد على دعوى النصِّيَّة على الإمام

ثُمَّ هبْ أنَّهُ سلَّمَ لكَ النصَّ ؛ فإذا كانَ متحيّراً في أصلِ النبوَّةِ ، فقالَ : هبْ أنَّ إمامَكَ يُدلي بمعجزةِ عيسىٰ عليهِ السلامُ فيقولُ : الدليلُ علىٰ صدقي أنّي أحيي أباكَ ، فأحياهُ ، فناطقَني بأنَّهُ محقٌّ . . فبماذا أعلمُ صدقَهُ ولمْ يعلمْ كافَّةُ الخلْقِ صدقَ عيسىٰ عليهِ السلامُ بهٰذهِ المعجزةِ ؟

بلْ عليهِ مِنَ الأسئلةِ المشكلةِ ما لا يدفعُ إلَّا بدقيقِ النظرِ العقليِّ ، والنظرُ العقليُّ لا يُوثَقُ بهِ عندَكَ ، ولا يعرفُ دلالةَ

المعجزةِ على الصدقِ ما لمْ يعرفِ السحْرَ والتمييزَ بينَهُ وبينَ المعجزةِ ، وما لمْ يعرفْ أنَّ اللهَ لا يضلُّ عبادَهُ ، وسؤالُ الإضلالِ وعسرُ تحريرِ الجوابِ عنْهُ مشهورٌ ، فبماذا تدفعُ جميعَ ذٰلكَ ولمْ يكنْ إمامُكَ أولىٰ بالمتابعةِ مِنْ مخالفِهِ ؟

فسيرجعُ إلى الأدلَّةِ النظريَّةِ التي ينكرُها ، وخصمُهُ يدلي بمثلِ تلكَ الأدلةِ وأوضحَ منْها ، وهـٰذا السؤالُ قدِ ٱنقلبَ عليهِ ٱنقلاباً عظيماً ، لوِ ٱجتمعَ أوَّلُهُمْ وآخرُهُمْ علىٰ أنْ يُحيروا عنْهُ جواباً . . لمْ يقدروا عليهِ .

وإنَّما نشأَ الفسادُ مِنْ جماعةٍ مِنَ الضَّعَفَةِ ناظروهُمْ ، فلمْ يشتغلوا بالقلْبِ بلْ بالجوابِ ، وذٰلكَ مما يطولُ فيهِ الكلامُ ، ولا يسبقُ سريعاً إلى الأفهامِ ، فلا يصلحُ للإفحامِ .

بيان الجواب على هـٰذا القلب

فإنْ قالَ قائلٌ : فهـٰذا هُوَ القلْبُ ، فهلْ عنْهُ جوابٌ ؟

فأقولُ : نعمْ ؛ جوابُهُ : أنَّ المتحيِّرَ إنْ قالَ : أنا متحيِّرٌ ولمْ يعيِّنِ المسألةَ التي هُوَ متحيِّرٌ فيها . . فيُقالُ لهُ : أنتَ كمريضٍ يقولُ : أنا مريضٌ ولا يذكرُ عينَ مرضِهِ ، ويطلبُ علاجَهُ .

فيُقالُ لهُ : ليسَ في الوجودِ علاجٌ للمرضِ المطلقِ ، بلْ لمرضٍ معيَّنٍ ؛ مِنْ صداعٍ ، أوْ إسهالٍ ، أوْ غيرِهما . . فكذٰلكَ المتحيِّرُ ينبغي أنْ يعيِّنَ ما هُوَ متحيِّرٌ فيهِ .

فإنْ عيَّنَ المسألةَ . . عرَّفْتَهُ الحقَّ فيها بالوزنِ بالموازينِ الخمسةِ التي لا يفهمُها أحدٌ إلَّا ويعترفُ بأنَّهُ الميزانُ الحقُّ الذي يُوثَقُ بكلِّ ما يُوزَنُ بهِ ، فيفهمُ الميزانَ ، ويفهمُ منْهُ أيضاً صحةَ الوزنِ ؛ كما يفهمُ متعلِّمُ علمِ الحساب نفْسَ الحسابِ ، وكونَ المحاسبِ المعلِّمِ عالماً بالحسابِ وصادقاً فيهِ ، وقدْ أوضحتُ ذٰلكَ في كتابِ « القِسطاسِ المستقيمِ » في مقدارِ عشرينَ ورقةً ، فليُتأمَّلْ .

الكتب التي ردّ بها الإمام الغزاليّ على الباطنية

وليسَ المقصودُ الآنَ بيانَ فسادِ مذهبِهِمْ ؛ فقدْ ذكرتُ ذٰلكَ في كتابِ « المُستظهِريِّ » أوّلاً ، وفي كتابِ « حُجَّةِ الحقِّ » ثانياً ؛ وهُوَ جوابُ كلامٍ لهُمْ عُرِضَ عليَّ ببغداذَ ، وفي كتابِ « مفصلِ الخلافِ » الذي هُوَ اثنا عشرَ فصلاً ثالثاً ؛ وهُوَ جوابُ كلامٍ لهُمْ عُرِضَ علي بهَمَذانَ ، وفي كتابِ « الدَّرَجِ » المرقومِ بالجداولِ رابعاً ؛ وهُوَ مِنْ رَكيكِ كلامِهِمُ الذي عُرِضَ عليَّ بطُوسَ ، وفي كتابِ « القِسطاسِ المستقيمِ » خامساً ؛ وهُوَ كتابٌ مستقلٌّ ؛ مقصودُهُ : بيانُ ميزانِ العلومِ ، وإظهارُ الِاستغناءِ عنِ الإمامِ المعصومِ لمنْ أحاطَ بهِ .

بيان سفه الباطنية

بلِ المقصودُ : أنَّ هٰؤلاءِ ليسَ معَهُمْ شيءٌ مِنَ الشفاءِ المُنجي

مِنْ ظُلُماتِ الآراءِ ، بلْ همْ معَ عجزِهِمْ عنْ إقامةِ البرهانِ علىٰ تعيينِ الإمامِ طالَما جربْناهُمْ ، فصدَّقْناهُمْ في الحاجةِ إلى التعليمِ ، وإلى المعلِّم المعصومِ ، وأنَّهُ الذي عيَّنوهُ ، ثُمَّ سألْناهُمْ عنِ العلمِ الذي تعلَّموهُ مِنْ هٰذا المعصومِ ، وعرضْنا عليهِمْ إشكالاتٍ ؛ فلمْ يفهموها فضلاً عنِ القيامِ بحلِّها ، فلمَّا عجَزوا . . أحالوا على الإمامِ الغائبِ ، وقالوا : إنَّهُ لا بدَّ مِنَ السفرِ إليهِ !

والعجبُ أنَّهُمْ ضيَّعوا عمرَهُمْ في طلبِ المعلِّمِ وفي التبجُّحِ بالظفرِ بهِ ، ولمْ يتعلَّموا منْهُ شيئاً أصلاً ؛ كالمضمَّخِ بالنجاسةِ ، يتعبُ في طلبِ الماءِ حتَّىٰ إذا وجدَهُ . . لمْ يستعملْهُ ، وبقيَ مضمَّخاً بالخبائثِ !

❀ ❀ ❀

اعتماد الباطنية علىٰ أركِّ مذاهب الفلسفة دليل علىٰ سفه معتقدهم

ومنْهُمْ مَنِ ٱدَّعىٰ شيئاً مِنْ علمِهِمْ ، فكانَ حاصلُ ما ذكرَهُ شيئاً مِنْ رَكيكِ فلسفةِ فيثاغورسَ ؛ وهُوَ رجلٌ مِنْ قدماءِ الأوائلِ ، ومذهبُهُ أركُّ مذاهبِ الفلسفةِ ، وقدْ رَدَّ عليهِ أرسطاطاليسُ ، بلِ ٱستركَّ كلامَهُ وٱسترذَلَهُ ، وهُوَ المحكيُّ في كتابِ « إخوان الصَّفا » ، وهُوَ على التحقيقِ حشوُ الفلسفةِ .

❀ ❀

من عرف حقيقتهم نفض اليد عنهم

فالعجبُ ممَّنْ يتعبُ طولَ العُمرِ في تحصيلِ العلمِ ، ثُمَّ

يقنعُ بمثلِ ذٰلكَ العلمِ الركيكِ المستغَثِّ[1] ، ويظنُّ أَنَّهُ ظفِرَ بأقصىٰ مقاصدِ العلومِ !!

فهٰؤلاءِ أيضاً جرَّبْناهُمْ وسبرْنا ظاهرَهُمْ وباطنَهُمْ ، فرجعَ حاصلُهُمْ إلى ٱستدراجِ العوامِّ وضعفاءِ العقولِ ببيانِ الحاجةِ إلى المعلِّمِ ، ومجادلتِهِمْ في إنكارِهِمُ الحاجةَ إلى التعليمِ بكلامٍ قويٍّ مفْحِمٍ ؛ حتَّىٰ إذا ساعدَهُمْ على الحاجةِ إلى المعلِّمِ مساعدٌ وقالَ : هاتِ علمَهُ وأفدْنا مِنْ تعليمِهِ . . وقفَ ، وقالَ : الآنَ إذْ سلَّمْتَ لي هٰذا . . فٱطلبْهُ ، فإنَّما غرضي هٰذا القدْرُ فقطْ ؛ إذْ علِمَ أَنَّهُ لوْ زادَ علىٰ ذٰلكَ . . لافتُضِحَ ، ولعجزَ عنْ حلِّ أدنى الإشكالاتِ ، بلْ عجزَ عنْ فهمِهِ فضلاً عنْ جوابِهِ .

فهٰذه حقيقةُ حالِهِمْ ؛ فٱخبُرْهُمْ . . تَقْلِهِمْ[2] ، فلمَّا خَبَرْناهُمْ . . نفضْنا اليدَ عنْهُمْ .

❋ ❋ ❋

(١) المستغَثُّ : الذي لا يغني ولا ينفع .
(٢) من قول سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه : (وجدتُ الناسَ ٱخْبُرْ تقلِهْ) وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٨٥) ومعناه : إن عرفتهم وخَبرْتَهم . . قَلَيْتَهم ـ أو : قَلَوْتَهم ـ وزهدت فيهم ، وانظر « فيض القدير » (١/٢٠٦) .

القول في طرق الصوفية

التصوف علم وعمل

ثُمَّ إِنِّي لمَّا فرغتُ مِنْ هٰذهِ العلومِ .. أقبلتُ بهمَّتِي علىٰ طريقِ الصوفيَّةِ ، وعلمتُ أنَّ طريقتَهُمْ إنَّما تتمُّ بعلمٍ وعملٍ .

وكانَ حاصلُ علمِهِمْ قطعَ عَقَباتِ النفسِ ، والتنزُّهَ عنْ أخلاقِها المذمومةِ وصفاتِها الخبيثةِ ؛ حتَّىٰ يتوصَّلَ بها إلىٰ تخليةِ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ ، وتحليتِهِ بذكْرِ اللهِ .

اطلاع الإمام الغزالي علىٰ كنه مقاصد الصوفية

وكانَ العلمُ أيسرَ عليَّ مِنَ العملِ ، فٱبتدأتُ بتحصيلِ علمِهِمْ مِنْ مطالعةِ كتبِهِمْ ؛ مثلِ « قوتِ القلوبِ » لأبي طالبٍ المكيِّ ، وكتبِ الحارثِ المحاسبيِّ ، والمتفرِّقاتِ المأثورةِ عنِ الجنيدِ والشِّبليِّ وأبي يزيدَ البِسطاميِّ ، وغيرِهِمْ مِنَ المشايخِ ، حتَّى ٱطَّلعتُ علىٰ كُنْهِ مقاصدِهِمُ العلميَّةِ ، وحصَّلْتُ ما يمكنُ أنْ يُحصَّلَ مِنْ طريقِهِمْ بالتعلُّمِ والسماعِ .

لا تدرك حقيقة التصوف إلا بالذوق لا بمجرد التكلم

فظهرَ لي أنَّ أخصَّ خواصِّهِمْ ما لا يمكنُ الوصولُ إليهِ بالتعلُّمِ ، بلْ بالذوقِ والحالِ وتبدُّلِ الصفاتِ .

فكمْ مِنَ الفرقِ بينَ أنْ تعلَمَ حدَّ الصحَّةِ وحدَّ الشبعِ وأسبابَهُما وشروطَهُما ، وبينَ أنْ تكونَ صحيحاً شبعانَ ، وبينَ أنْ تعرفَ حدَّ السكْرِ وأنَّهُ عبارةٌ عنْ حالةٍ تحصُلُ مِنِ ٱستيلاءِ أبخرَةٍ تتصاعدُ مِنَ المعدةِ علىٰ معادنِ الفكرِ ، وبينَ أنْ تكونَ سكرانَ ، بلِ السكرانُ لا يعرفُ حدَّ السكْرِ وعلمَهُ وهُوَ سكرانُ وما معَهُ مِنْ علمِهِ شيءٌ !

والطبيبُ يعرفُ حدَّ المرضِ وأركانَهُ وما معَهُ مِنَ المرضِ شيءٌ ، والطبيبُ في حالةِ المرضِ يعرفُ حدَّ الصحَّةِ وأسبابَها وأدويتَها وهُوَ فاقدُ الصحةَ ، فكذٰلكَ فرقٌ بينَ أنْ تعرفَ حقيقةَ الزهدِ وشروطَهُ وأسبابَهُ ، وبينَ أنْ يكونَ حالُكَ الزهدَ وعزوفَ النفسِ عنِ الدنيا .

فعلمتُ يقيناً أنَّهُمْ أربابُ أحوالٍ ، لا أصحابُ أقوالٍ ، وأنَّ ما يمكنُ تحصيلُهُ بطريقِ العلمِ فقدْ حصَّلتُهُ ، ولمْ يبقَ إلَّا ما لا سبيلَ إليهِ بالسماعِ والتعلُّمِ ، بلْ بالذوْقِ والسلوكِ .

ثلاثة أصول من الإيمان رسخت في نفس الإمام الغزالي بما معه من العلم

وكانَ قدْ حصلَ معي مِنَ العلومِ التي مارستُها والمسالكِ التي سلكتُها في التفتيشِ عنْ صنفَيِ العلومِ الشرعيَّةِ والعقليَّةِ : إيمانٌ يقينيٌّ باللهِ تعالىٰ ، وبالنبوَّةِ ، وباليومِ الآخرِ .

فهٰذهِ الأصولُ الثلاثةُ مِنَ الإيمانِ كانتْ قدْ رسخَتْ في

نفسي لا بدليلٍ معيَّنٍ محرَّرٍ ، بلْ بأسبابٍ وقرائنَ وتجارِبَ لا تدخلُ تحتَ الحصْرِ تفاصيلُها .

سعادة الآخرة بالتقوىٰ وتهذيب النفس

وكانَ قدْ ظهرَ عندي أنَّهُ لا مطمعَ في سعادةِ الآخرةِ إلَّا بالتقوىٰ ، وكفِّ النفسِ عنِ الهوىٰ ، وأنَّ رأسَ ذٰلكَ كلِّهِ قطعُ علاقةِ القلْبِ عنِ الدنيا ؛ بالتجافي عنْ دارِ الغُرورِ ، والإنابةِ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والإقبالِ بكُنْهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ ذٰلكَ لا يتمُّ إلَّا بالإعراضِ عنِ الجاهِ والمالِ ، والهربِ مِنَ الشواغلِ والعلائقِ .

بدء محاسبة النفس وظهور خفايا مخيفة

ثُمَّ لاحظتُ أحوالي ؛ فإذا أنا منغمسٌ في العلائقِ وقدْ أحدقَتْ بي مِنَ الجوانبِ ، ولاحظْتُ أعمالي ـ وأحسنُها التدريسُ والتعليمُ ـ فإذا أنا فيها مقبلٌ علىٰ علومٍ غيرِ مهمَّةٍ ، ولا نافعةٍ في طريقِ الآخرةِ .

ثُمَّ تفكَّرْتُ في نيَّتي في التدريسِ ؛ فإذا هِيَ غيرُ خالصةٍ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بلْ باعثُها ومحرِّكُها : طلبُ الجاهِ وانتشارُ الصيتِ ، فتيقَّنْتُ أنِّي علىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ ، وأنِّي قدْ أشفَيتُ على النارِ إنْ لمْ أشتغلْ بتلافي الأحوالِ .

فلمْ أزلْ أتفكَّرُ فيهِ مدَّةً وأنا بعدُ علىٰ مقامِ الاختيارِ ؛ أصمِّمُ

العزْمَ على الخروجِ مِنْ بغداذَ ، ومفارقةِ تلكَ الأحوالِ يوماً ، وأحُلُّ العزمَ يوماً ، وأقدِّمُ فيهِ رجلاً ، وأؤخِّرُ عنْهُ أخرىٰ ، لا تصدُقُ لي رغبةٌ في طلبِ الآخرةِ بُكرةً إلَّا ويحملُ عليها جندُ الشهوةِ حملةً ، فيفتِّرُها عشيَّةً .

صراع شهوات الدنيا مع منادي الإيمان

فصارتْ شهواتُ الدنيا تجاذِبُني بسلاسلِها إلى المُقامِ ، ومنادي الإيمانِ ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ؛ فلمْ يبقَ مِنَ العُمرِ إلَّا قليلٌ ، وبينَ يدَيكَ السفرُ الطويلُ ، وجميعُ ما أنتَ فيهِ مِنَ العلمِ والعملِ رياءٌ وتخييلٌ ، فإنْ لمْ تستعدَّ الآنَ للآخرةِ . . فمتىٰ تستعدُّ ؟ وإنْ لمْ تقطعِ الآنَ هٰذهِ العلائقَ . . فمتىٰ تقطعُ ؟!

فعندَ ذٰلكَ تنبعثُ الداعيةُ ، وينجزمُ العزمُ على الهربِ والفرارِ .

ثُمَّ يعودُ الشيطانُ ويقولُ : هٰذهِ حالةٌ عارضةٌ ، إيَّاكَ أنْ تطاوِعَها ؛ فإنَّها سريعةُ الزوالِ ، فإنْ أذعنْتَ لها ، وتركتَ هٰذا الجاهَ العريضَ ، والشأنَ المنظومَ الخاليَ عنِ التكديرِ والتنغيصِ ، والأمرَ المسلَّمَ الصافيَ عنْ منازعةِ الخصومِ . . ربَّما ٱلتفتَتْ إليهِ نفسُكَ ، ولا يتيسَّرُ لكَ المعاودةُ .

مدة هـٰذا الصراع وعاقبته

فلمْ أزلْ أتردَّدُ بينَ تجاذبِ شهواتِ الدنيا ودواعي الآخرةِ قريباً مِنْ ستَّةِ أشهرٍ .

أوَّلُها : رجبٌ ، سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وأربعِ مئةٍ[1] ، وفي هـٰذا الشهرِ جاوزَ الأمرُ حدَّ الِاختيارِ إلى الِاضطرارِ ؛ إذْ أقفلَ اللهُ علىٰ لساني حتَّى ٱعتقلَ عنِ التدريسِ ، فكنتُ أجاهدُ نفسي أنْ أدرِّسَ يوماً واحداً تطييباً لقلوبِ المختلفةِ إليَّ ، فكانَ لا ينطلقُ لساني بكلمةٍ واحدةٍ ، ولا أستطيعُها ألبتةَ .

ثُمَّ أورثتْ هـٰذهِ العُقْلَةُ في اللسانِ حزناً في القلبِ[2] ، بطلَ معَهُ قوَّةُ الهضْمِ ومَراءةُ الطعامِ والشرابِ ، فكانَ لا ينساغُ لي شَربةٌ ، ولا تنهضمُ لي لقمةٌ ، وتعدَّىٰ إلىٰ ضعْفِ القِوىٰ ، حتَّىٰ قطعَ الأطبَّاءُ طمعَهُمْ مِنَ العلاجِ ، وقالوا : هـٰذا أمرٌ نزلَ بالقلبِ ، ومنْهُ سَرَىٰ إلى المِزاجِ ، فلا سبيلَ إليهِ بالعلاجِ إلَّا بأنْ يتروَّحَ السرُّ عنِ الهمِّ الملمِّ .

حسم الأمر بالالتجاء لصاحب الأمر

ثُمَّ لمَّا أحسسْتُ بعجزي ، وسقطَ بالكلِّيَّةِ ٱختياري . . ٱلتجأتُ إلى اللهِ تعالى ٱلتجاءَ المضطرِّ الذي لا حيلَةَ لهُ ، فأجابَني الذي يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ، وسهَّلَ علىٰ قلبي

---

(١) في (د ، هـ ، و) : (ست وثمانين وأربع مئة) .
(٢) يقال : اعتقل لسانه ؛ إذا حبس ومنع الكلام .

الإِعــراضَ عنِ الجــاهِ والمالِ ، والأهلِ والولــدِ والأصحابِ ، وأظهرتُ عزمَ الخروجِ إلىٰ مكَّةَ ، وأنا أورِّي في نفســي سفرَ الشــامِ ؛ حِذاراً منْ أنْ يطَّلعَ الخليفــةُ وجملةُ الأصحابِ علىٰ عزمــي على المقــامِ بالشــامِ ، فتلطفْتُ بلطائــفِ الحيلِ في الخروجِ مِنْ بغداذَ علىٰ عزمِ ألَّا أعاودَها أبداً .

العزم على السفر إلى الشام

وٱستهدَفتُ لأئمَّةِ أهلِ العراقِ كافَّةً ؛ إذْ لمْ يكنْ فيهِمْ مَنْ يجوِّزُ أنْ يكونَ للإعراضِ عمَّا كنتُ فيهِ سببٌ دينيٌّ ؛ إذْ ظنُّوا أنَّ ذٰلكَ هُوَ المَنصِبُ الأعلىٰ في الدِّينِ ، وكانَ ذٰلكَ مبلغَهُمْ مِنَ العلمِ .

اختلاف التأويلات والتهم بسبب إعراض الإمام الغزالي عما هو فيه

ثُمَّ ٱرتبَكَ الناسُ في الِاستنباطاتِ ، وظنَّ مَنْ بَعُدَ مِنَ العراقِ أنَّ ذٰلكَ كانَ لاستشعارٍ مِنْ جهةِ الولاةِ .

وأمَّا مَنْ قَرُبَ مِنَ الولاةِ . . فكانَ يشاهدُ إلحاحَهُمْ في التعلُّقِ بي والِانكبابِ عليَّ وإعراضي عنْهُمْ وعنِ الِالتفاتِ إلىٰ قولِهِمْ ؛ فيقولونَ : هٰذا أمرٌ سماويٌّ ، وليسَ لهُ سببٌ إلَّا عينٌ أصابَتْ أهلَ الإسلامِ وزمرةَ أهلِ العلمِ .

مفارقة بغداد والذهاب إلى الشام

ففارقتُ بغداذَ ، وفرَّقْتُ ما كانَ معي مِنْ مالٍ ، ولمْ أدَّخرْ إلَّا قدْرَ الكفافِ ، وقوتَ الأطفالِ ؛ ترخُّصاً بأنَّ مالَ العراقِ مُرْصَدٌ

للمصالحِ ؛ لكونِهِ وَقْفاً على المسلمينَ ، فلمْ أرَ في العالَمِ مالاً يأخذُهُ العالِمُ لعيالِهِ أصلحَ منْهُ .

بداية المجاهدات النفسية

ثُمَّ دخلتُ الشامَ ، وأقمتُ بهِ قريباً مِنْ سنتينِ ، لا شغلَ لي إلَّا العزلةُ والخلوةُ ، والرياضةُ والمجاهدةُ ؛ ٱشتغالاً بتزكيةِ النفسِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وتصفيةِ القلبِ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ؛ كما كنتُ حصَّلْتُهُ مِنْ كتبِ الصوفيَّةِ ، فكنتُ أعتكفُ مدَّةً في مسجدِ دمشقَ ، أصعدُ منارةَ المسجدِ طولَ النهارِ ، وأُغلِقُ بابَها علىٰ نفسي .

الارتحال إلى القدس الشريف

ثُمَّ رحلتُ منْها إلىٰ بيتِ المقدِسِ ، أدخلُ كلَّ يومٍ إلى الصخرةِ ، وأغلقُ بابَها علىٰ نفسي .

الحنين للحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلّم

ثُمَّ تحرَّكَتْ فيَّ داعيةُ فريضةِ الحجِّ ، والاستمدادِ مِنْ بركاتِ مكَّةَ والمدينةِ وزيارةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ الفراغِ مِنْ زيارةِ الخليلِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ؛ فسِرْتُ إلى الحجازِ .

المعاودة إلى الوطن مع الخلوة وتصفية القلب

ثُمَّ جذبتْني الهِمَمُ ودعواتُ الأطفالِ إلى الوطنِ ، فعاودتُهُ بعدَ أنْ كنتُ أبعدَ الخلْقِ عنِ الرجوعِ إليهِ ، فآثرتُ العُزلَةَ بهِ أيضاً ؛ حرصاً على الخلوةِ وتصفيةِ القلبِ للذكرِ .

مهمات الحياة تشوش صفوة الخلوة

وكانَتْ حوادثُ الزمانِ ، ومهمَّاتُ العيالِ ، وضروراتُ المعيشةِ . . تُغَبِّرُ في وجهِ المرادِ ، وتشوِّشُ صفوةَ الخلوةِ ، وكانَ لا يصفو لي الحالُ إلَّا في أوقاتٍ متفرِّقةٍ ؛ لٰكنِّي معَ ذٰلكَ لا أقطعُ طمعي منْها ، فتدفعُني عنها العوائقُ ، وأعودُ إليها .

ودمْتُ علىٰ ذٰلكَ مقدارَ عشرِ سنينَ ، وٱنكشفَ لي في أثناءِ هٰذهِ الخَلَواتِ أمورٌ لا يمكنُ إحصاؤُها وٱستقصاؤُها .

إدراك المؤلف بأن طريق الصوفية هي أحسن الطرق

والقدْرُ الذي أذكرُهُ ليُنتفَعَ بهِ : أنِّي علمْتُ يقيناً أنَّ الصوفيَّةَ همُ السالكونَ لطريقِ اللهِ تعالىٰ خاصَّةً ، وأنَّ سِيرتَهُمْ أحسنُ السِّيَرِ ، وطريقَهُمْ أصوبُ الطرقِ ، وأخلاقَهُمْ أزكى الأخلاقِ .

بلْ لوْ جمعَ عقلُ العقلاءِ ، وحكمةُ الحكماءِ ، وعلمُ الواقفينَ علىٰ أسرارِ الشرعِ مِنَ العلماءِ ؛ ليغيِّروا شيئاً مِنْ

سِيَرِهِمْ وأخلاقِهِمْ ، ويبدِّلُوهُ بما هُوَ خيرٌ منْهُ . . لمْ يجدوا إليهِ سبيلاً ؛ فإنَّ جميعَ حركاتِهِمْ وسكناتِهِمْ في ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ مقتبَسةٌ مِنْ مِشكاةِ النبوَّةِ ، وليسَ وراءَ نورِ النبوَّةِ على وجهِ الأرضِ نورٌ يُستضاءُ بهِ .

العقل والحكمة والعلم تقر بفضل الصوفية

وبالجملةِ : فماذا يقولُ القائلونَ في طريقةٍ طهارتُها - وهِيَ أوَّلُ شروطِها - : تطهيرُ القلبِ بالكلِّيَّةِ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ ، ومفتاحُها الجاري منْها مَجْرى التحريمِ مِنَ الصلاةِ : ٱستغراقُ القلبِ بالكلِّيَّةِ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وآخرُها : الفناءُ بالكلِّيَّةِ في اللهِ تعالىٰ ؟!

مدح الإمام الغزالي لطريقة التصوف ومراتبها وبيان سبب فضلها

وهـٰذا آخرُها بالإضافةِ إلىٰ ما يكادُ يدخلُ تحتَ الاختيارِ والكسبِ مِنْ أوائلِها ، وهِيَ على التحقيقِ أوَّلُ الطريقةِ ، وما قبلَ ذٰلكَ كالدِّهليزِ للسالكِ إليهِ .

ومِنْ أوَّلِ الطريقةِ تبتدئُ المكاشفاتُ والمشاهداتُ ، حتَّىٰ إنَّهُمْ وهمْ في يقظتِهِمْ يشاهدونَ الملائكةَ وأرواحَ الأنبياءِ ، ويسمعونَ منْهُمْ أصواتاً ، ويقتبسونَ منْهُمْ فوائدَ .

ذكر شيء مما أفصح عنه اللسان من مقامات الصوفية

ثُمَّ يترقَّى الحالُ مِنْ مشاهدةِ الصورِ والأمثالِ إلىٰ درجاتٍ يضيقُ عنْها نِطاقُ النطقِ ، فلا يحاولُ معبِّرٌ أنْ يعبِّرَ عنْها إلَّا

ٱشتملَ لفظُهُ علىٰ خطأٍ صريحٍ لا يمكنُهُ الِاحترازُ عنْهُ .

وعلى الجملةِ : ينتهي الأمرُ إلىٰ قرْبٍ يكادُ يتخيَّلُ منْهُ طائفةٌ الحلولَ ، وطائفةٌ الِاتِّحادَ ، وطائفةٌ الوصولَ ، وكلُّ ذٰلكَ خطأٌ ، وقدْ بيَّنَّا وجهَ الخطأِ فيهِ في كتابِ « المقصِدِ الأسنىٰ »[1] .

بلِ الذي لابستْهُ تلكَ الحالةُ لا ينبغي أنْ يزيدَ علىٰ أنْ يقولَ[2] : [من البسيط]

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ ... فَظُنَّ خَيْراً وَلَا تَسْأَلْ عَنِ ٱلْخَبَرِ

من لم يذق لم يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم

وبالجملةِ : فمنْ لمْ يُرزَقْ منْهُ شيئاً بالذوقِ . . فليسَ يدركُ مِنْ حقيقةِ النبوّةِ إلَّا الِاسمَ ، وكراماتُ الأولياءِ هِيَ على التحقيقِ بداياتُ الأنبياءِ .

تبتل النبي صلى الله عليه وسلم بحراء دليل الانقطاع إلى الله تعالىٰ

وكانَ ذٰلكَ أوّلَ حالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ تبتَّلَ إلىٰ جبلِ حِراءٍ حينَ كانَ يخلو فيهِ بربّهِ ويتعبَّدُ ؛ حتَّىٰ قالَتِ العربُ : إنَّ محمداً عشِقَ ربَّهُ !

وهٰذهِ حالةٌ يتحقَّقُها بالذوقِ مَنْ يسلُكُ سبيلَها ، ومَنْ لمْ يُرزَقِ الذوقَ . . فيتيقَّنُها بالتجربةِ والتسامعِ إنْ أكثرَ معَهُمُ الصحبةَ ؛ حتَّىٰ يفهمَ ذٰلك بقرائنِ الأحوالِ يقيناً ، ومَنْ

---

(١) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٣٨ ـ ٤٢) .

(٢) البيت لابن المعتزّ في « ديوانه » (ص ١٩٥) .

جالسَهُمْ . . ٱستفادَ منْهُمْ هٰذا الإيمانَ ؛ فهمُ القوْمُ لا يشقَىٰ بهِمْ جليسُهُمْ .

ومَنْ لمْ يُرزَقْ صحبتَهُمْ . . فليعلمْ إمكانَ ذٰلكَ يقيناً بشواهدِ البرهانِ ؛ علىٰ ما ذكرْناهُ في كتابِ « عجائبِ القلبِ » منْ كتبِ « إحياءِ علومِ الدينِ »[1] .

الدرجات الثلاث وما وراءها هو عين الجهل

والتحقيقُ بالبرهانِ : علْمٌ ، وملابسةُ عينِ تلكَ الحالةِ : ذوقٌ ، والقَبولُ مِنَ التسامعِ والتجربَةِ بحسنِ الظنِّ : إيمانٌ ؛ فهٰذهِ ثلاثُ درجاتٍ ، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

ووراءَ هٰؤلاءِ قومٌ جهَّالٌ ، همُ المنكِرونَ لأصلِ ذٰلكَ ، المتعجِّبونَ مِنْ هٰذا الكلامِ ، يستمعونَ ويسخرونَ ، ويقولونَ : العجبَ ؛ إنَّهُمْ كيفَ يهذونَ ! وفيهِمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[2] .

---

(١) إحياء علوم الدين (٥/٨٤) .

(٢) والآيات بتمامها : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا

وممَّا بانَ لي بالضرورةِ مِنْ ممارسةِ طريقتِهِمْ : حقيقةُ النبوَّةِ وخاصيَّتُها ، ولا بدَّ مِنَ التنبيهِ علىٰ أصلِها لشدَّةِ مسيسِ الحاجةِ إليها .

❋ ❋ ❋

← جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ .

القول في حقيقة النّبوّة واضطرار كافّة الخلق إليها

خلقت فطرة الإنسان خالية ساذجة

اَعلمْ : أنَّ جوهرَ الإنسانِ في أصلِ الفطرةِ خُلِقَ خالياً ساذجاً ، لا خبرَ معَهُ مِنْ عوالمِ اللهِ تعالىٰ ، والعوالمُ كثيرةٌ لا يُحصيها إلَّا اللهُ تعالىٰ ؛ كما قالَ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وإنَّما خبرُهُ مِنَ العوالمِ بواسطةِ الإدراكِ ، وكلُّ إدراكٍ مِنَ الإدراكاتِ خُلِقَ ليطَّلعَ الإنسانُ بهِ علىٰ عالَمٍ مِنَ الموجوداتِ ، ونعني بالعوالمِ : أجناسَ الموجوداتِ .

أطوار تعلم الإنسان أولاً : بالحواس

فأوَّلُ ما يُخلَقُ في الإنسانِ حاسَّةُ اللمْسِ ، فيدركُ بها أجناساً مِنَ الموجوداتِ ؛ كالحرارةِ والبرودةِ ، والرطوبةِ واليُبوسةِ ، واللينِ والخشونةِ ، وغيرِها ، واللمسُ قاصرٌ عنْ إدراكِ الألوانِ والأصواتِ قطعاً ، بلْ هِيَ كالمعدومةِ في حقِّ اللمْسِ .

ثُمَّ يُخلَقُ لهُ حاسَّةُ البصرِ ، فيدركُ بها الألوانَ والأشكالَ ، وهُوَ أوسعُ عوالمِ المحسوساتِ ، ثُمَّ ينفتحُ لهُ السمعُ ، فيسمعُ الأصواتَ والنغَماتِ ، ثُمَّ يُخلَقُ لهُ الذوقُ .

ثانياً : بالتمييز

وكذٰلكَ إلىٰ أنْ يجاوزَ عالمَ المحسوساتِ ، فيُخلَقُ فيهِ

التمييزُ وهُوَ قريبٌ مِنْ سبعِ سنينَ ، وهُوَ طَوْرٌ آخرُ مِنْ أطوارِ وجودِهِ ، فيدركُ فيهِ أموراً زائدةً على المحسوساتِ ، لا يوجدُ منْها شيءٌ في عالمِ الحسِّ .

ثالثاً : بالعقل

ثُمَّ يترقَّىٰ إلىٰ طورٍ آخرَ ، فيُخلَقُ لهُ العقلُ ، فيدركُ الواجباتِ والجائزاتِ والمستحيلاتِ ، وأموراً لا توجدُ في الأطوارِ التي قبلَهُ .

رابعاً : طور ما وراء العقل

ووراءَ العقلِ طورٌ آخرُ تنفتحُ فيهِ عينٌ أخرىٰ يُبصرُ بها الغيبَ ، وما سيكونُ في المستقبلِ ، وأموراً أُخَرَ العقلُ معزولٌ عنْها كعزلِ قوَّةِ التمييزِ عنْ إدراكِ المعقولاتِ ، وكعزلِ قوَّةِ الحسِّ عنْ مدركاتِ التمييزِ .

إباء مدركات النبوة عين الجهل والاستدلال علىٰ ذلك

وكما أنَّ المُمَيِّزَ لوْ عُرِضَتْ عليهِ مدرَكاتُ العقلِ . . لأباها وٱستبعدَها ؛ كذٰلكَ بعضُ العقلاءِ أَبَوْا مدرَكاتِ النبوَّةِ وٱستبعدوها ، وذٰلكَ عينُ الجهلِ ؛ إذْ لا مستندَ لهمْ إلَّا أنَّهُ طورٌ لمْ يبلغْهُ ولمْ يوجدْ في حقِّهِ ، فيظنُّ أنَّهُ غيرُ موجودٍ في نفسِهِ .

والأكْمَهُ لوْ لمْ يعلمْ بالتواترِ والتسامعِ الألوانَ والأشكالَ ، وحُكِيَ لهُ ذٰلكَ ٱبتداءً . . لمْ يفهمْها ولمْ يُقِرَّ بها .

النوم أنموذج من خاصيات النبوة

وقدْ قرَّبَ اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ علىٰ خلقِهِ بأنْ أعطاهُمْ أُنموذَجاً مِنْ خاصيَّةِ النبوَّةِ ، وهُوَ النومُ ؛ إذِ النائمُ يدركُ ما سيكونُ مِنَ الغيبِ ؛ إمَّا صريحاً ، وإمَّا في كُسوةِ مثالٍ يكشفُ عنْهُ التعبيرُ .

وهٰذا لوْ لمْ يجرِّبْهُ الإنسانُ مِنْ نفسِهِ ، وقِيلَ لهُ : إنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يسقطُ مغشيّاً عليهِ كالميِّتِ ، ويزولُ إحساسُهُ وسمعُهُ وبصرُهُ فيدركُ الغيبَ .. لأنكرَهُ ، وأقامَ البرهانَ على ٱستحالتِهِ ، وقالَ : القُوى الحسَّاسةُ أسبابُ الإدراكِ ، فمَنْ لا يدركُ الأشياءَ معَ وجودِها وحضورِها .. فبأَلَّا يدركَ معَ ركودِها أَولىٰ وأحقُّ .

إدراك العقل دليل علىٰ وجود النبوة

وهٰذا نوعُ قياسٍ يكذِّبُهُ الوجودُ والمشاهدةُ ؛ فكما أنَّ العقلَ طورٌ مِنْ أطوارِ الآدميِّ يحصلُ فيهِ عينٌ يبصرُ بها أنواعاً مِنَ المعقولاتِ ـ والحواسُّ معزولةٌ عنْها ـ .. فالنبوَّةُ أيضاً عبارةٌ عنْ طورٍ يحصلُ فيهِ عينٌ لها نورٌ يظهرُ في نورِها الغيبُ ، وأمورٌ لا يدركُها العقلُ .

صور الشك في النبوة وعلاجها

والشكُّ في النبوَّةِ : إمَّا أنْ يقعَ في إمكانِها ، أوْ في وجودِها ووقوعِها ، أوْ في حصولِها لشخصٍ معيَّنٍ .

ودليلُ إمكانِها : وجودُها .

ودليلُ وجودِها : وجودُ معارفَ في العالَمِ لا يُتصَوَّرُ أنْ تُنالَ بالعقلِ ؛ كعلْمِ الطبِّ والنجومِ ، فإنَّ مَنْ بحثَ عنْها . . عَلِمَ بالضرورةِ أنَّها لا تُدرَكُ إلَّا بإلهامٍ إلـٰهيٍّ ، وتوفيقٍ مِنْ جهةِ اللهِ تعالىٰ ، ولا سبيلَ إليها بالتجرِبةِ ؛ فمِنَ الأحكامِ النجوميَّةِ ما لا يقعُ إلَّا في كلِّ ألْفِ سنةٍ مرَّةً ، فكيفَ يُنالُ ذٰلكَ بالتجرِبةِ ؟! وكذٰلكَ خواصُّ الأدويةِ .

فيتبيَّنُ بهـٰذا البرهانِ : أنَّ في الإمكانِ وجودَ طريقٍ لإدراكِ هـٰذهِ الأمورِ التي لا يدركُها العقلُ ؛ وهُوَ المرادُ بالنبوَّةِ ، لا أنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عنْها فقطْ ، بلْ إدراكُ هـٰذا الجنسِ الخارجِ عنْ مدرَكاتِ العقلِ إحدىٰ خواصِّ النبوَّةِ ، ولها خواصُّ كثيرةٌ سواها ، وما ذكرْناهُ قطرةٌ مِنْ بحرِها .

وإنَّما ذكرْناها . . لأنَّ معَكَ أُنموذَجاً منْها ؛ وهُوَ مدركاتُكَ في النومِ ، ومعَكَ علومٌ مِنْ جنسِها في الطبِّ والنجومِ ، وهِيَ معجزاتُ الأنبياءِ ، ولا سبيلَ إليها للعقلاءِ ببضاعةِ العقلِ أصلاً .

بعضٌ من خاصيات النبـوة لا يُدرك إلا بالذوق

وأمَّا ما عدا هـٰذا مِنْ خواصِّ النبوَّةِ . . فإنَّما يُدرَكُ بالذوْقِ مِنْ سلوكِ طريقِ التصوُّفِ ؛ لأنَّ هـٰذا إنَّما فهمتَهُ بأُنموذجٍ رُزِقتَهُ وهُوَ النومُ ، ولولاهُ . . لَمَا صدَّقتَ بهِ ؛ فإنْ كانَ للنبيِّ

خاصِّيَّةٌ ليسَ لكَ منْها أنموذجٌ ، ولا تفهمُها أصلاً . . فكيفَ تصدِّقُ بها ، وإنَّما التصديقُ بعدَ الفهمِ ؟!

وذٰلكَ الأنموذجُ تحصَّلَ في أوائلِ طريقِ التصوُّفِ ، فيحصلُ بهِ نوعٌ مِنَ الذوقِ بالقدْرِ الحاصلِ ، ونوعٌ مِنَ التصديقِ بما لمْ يحصلْ بالقياسِ إليهِ ؛ فهٰذهِ الخاصِّيَّةُ الواحدةُ تكفيكَ للإيمانِ بأصلِ النبوَّةِ .

الشك في حقيقة شخص يزول بمعرفة أحواله

فإنْ وقعَ لكَ الشكُّ في شخصٍ معيَّنٍ : أَنَّهُ نبيٌّ أمْ لا . . فلا يحصلُ اليقينُ إلَّا بمعرفةِ أحوالِهِ : إمَّا بالمشاهدةِ ، أوْ بالتسامعِ في التواترِ ؛ فإنَّكَ إذا عرفْتَ الفقهَ والطبَّ . . يمكنُكَ أنْ تعرفَ الأطبَّاءَ والفقهاءَ ؛ بمشاهدةِ أحوالِهِمْ وسماعِ أقوالِهِمْ .

فإنْ لمْ تشاهدْ . . فلا تعجزُ أيضاً عنْ معرفةِ كونِ الشافعيِّ فقيهاً ، وكونِ جالينوسَ طبيباً معرفةً بالحقيقةِ لا بالتقليدِ عنِ الغيرِ ، بلْ بأنْ تتعلَّمَ شيئاً مِنَ الطبِّ والفقهِ ، وتطالعَ كتبَهُما وتصانيفَهُما ، فيحصلُ لكَ علمٌ ضروريٌّ بحالِهِما .

إكثار النظر في القرآن والأخبار يورثك اليقين بنبوته صلى الله عليه وسلم

فكذٰلكَ إذا فهمْتَ معنى النبوَّةِ . . فأكثِرِ النظرَ في القرآنِ والأخبارِ ؛ يحصلْ لكَ العلمُ الضروريُّ بكونِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على أعلىٰ درجاتِ النبوَّةِ ، وٱعضُدْ ذٰلكَ بتجربةِ ما قالَهُ

في العباداتِ ، وتأثيرها في تصفيةِ القلوبِ ، وكيفَ صدقَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ : « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ . . وَرَّثَهُ ٱللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[١] .

وكيفَ صدقَ في قولِهِ : « مَنْ أَعَانَ ظَالِماً . . سَلَّطَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ »[٢] .

وكيفَ صدقَ في قولِهِ : « مَنْ أَصْبَحَ وَهُمُومُهُ هَمٌّ وَاحِدٌ . . كَفَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ هُمُومَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ »[٣] .

حصول العلم الضروري بتكرر التجارب السابقة

فإذا جرَّبتَ ذٰلكَ في ألفٍ وألفينِ وآلافٍ . . حصلَ لكَ علمٌ ضروريٌّ لا تتمارىٰ فيهِ ؛ فمِنْ هـٰذا الطريقِ اُطلُبِ اليقينَ بالنبوَّةِ ، لا مِنْ قلبِ العصا ثعباناً ، وشقِّ القمرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ إذا نظرتَ إليهِ وحدَهُ ، ولمْ تنضمَّ إليهِ القرائنُ الكثيرةُ الخارجةُ عنِ الحصرِ . . ربَّما ظننْتَ أنَّهُ سحرٌ وتخييلٌ ، وأنَّهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ إضلالٌ ؛ فإنهُ يضلُّ مَنْ يشاءُ ويهدي مَنْ يشاءُ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/١٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/٤) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٧) ، والآجري في « أخلاق العلماء » (٧٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وتَرِدُ عليكَ أسئلةُ المعجزاتِ ، فإذا كانَ مستنَدُ إيمانِكَ كلاماً منظوماً في وجْهِ دلالةِ المعجزةِ . . فينجزمُ إيمانُكَ بكلامٍ مرتَّبٍ في وجْهِ الإشكالِ والشبهةِ عليها .

فليكنْ مثلُ هٰذهِ الخوارقِ إحدى الدلائلِ والقرائنِ في جملةِ نظرِكَ ؛ حتَّىٰ يحصلَ لكَ علمٌ ضروريٌّ ، لا يمكنُكَ ذكرُ مستندِهِ على التعيينِ ؛ كالذي يخبرُهُ جماعةٌ بخبرٍ متواترٍ لا يمكنُهُ أنْ يذكرَ أنَّ اليقينَ مستفادٌ مِنْ قولِ واحدٍ معيَّنٍ ، بلْ مِنْ حيثُ لا يدري ولا يخرجُ عنْ جملةِ ذٰلكَ ولا بتعيينِ الآحادِ ، فهٰذا هُوَ الإيمانُ العلميُّ القويُّ .

حصول الذوق لا يكون إلا بطريق الصوفية

وأمَّا الذوقُ . . فهُوَ كالمشاهدةِ والأخذِ باليدِ ، ولا يُؤخَذُ إلَّا في طريقِ الصوفيَّةِ ، فهٰذا القدرُ مِنْ حقيقةِ النبوَّةِ كافٍ في الغرضِ الذي أقصدُهُ الآنَ ، وسأذكرُ وجهَ الحاجةِ إلىٰ ذكرِهِ .

* * *

القول في سبب معاودة نشر العلم بعد الإعراض عنه

خُلق الإنسان من بدنٍ وقلب وهو محل معرفة الله تعالىٰ

ثُمَّ إنّي واظبتُ على العُزلةِ والخلوةِ قريباً مِنْ عشرِ سنينَ ، وبانَ لي في أثناءِ ذٰلكَ على الضرورةِ مِنْ أسبابٍ لا أُحصيها ؛ مرةً بالذوقِ ، ومرةً بالعلمِ البرهانيّ ، ومرةً بالقولِ الإيمانيِّ . . أنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِنْ بدنٍ وقلبٍ ، وأعني بالقلبِ : حقيقةَ روحِهِ التي هِيَ محلُّ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، دونَ اللحمِ والدمِ الذي يشاركُ فيه الميْتَ والبهيمةَ .

صحة القلب وسقمه وسلامته وهلاكه

وأنَّ البدنَ لهُ صحَّةٌ بها سعادتُهُ ، ومرضٌ فيهِ هلاكُهُ ، وأنَّ القلبَ كذٰلكَ لهُ صحَّةٌ وسلامةٌ ، ولا ينجو إلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، ولهُ مرضٌ فيهِ هلاكُهُ الأبديُّ الأُخرويُّ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ .

وأنَّ الجهلَ باللهِ سُمُّهُ المُهلِكُ ، وأنَّ معصيةَ اللهِ بمتابعةِ الهوىٰ داؤُهُ الممرِضُ ، وأنَّ معرفةَ اللهِ تعالىٰ تِرياقُهُ المحيي ، وطاعتَهُ بمخالفةِ الهوىٰ دواؤُهُ الشافي .

علاج القلب بأدوية العبادات أحسن الدواء

فإنَّهُ لا سبيلَ إلىٰ معالجتِهِ بإزالةِ مرضِهِ وكسبِ صحَّتِهِ إلَّا بأدويةٍ ؛ كما لا سبيلَ في معالجةِ البدنِ إلَّا بذٰلكَ ، وكما أنَّ

أدويةَ البدنِ تؤثّرُ في كسبِ الصحَّةِ لخاصيَّةٍ فيها لا يدركُها العقلاءُ ببضاعةِ العقلِ ، بلْ يجبُ فيها تقليدُ الأطبَّاءِ الذينَ أخذوها مِنَ الأنبياءِ الذينَ ٱطَّلعوا بخاصيَّةِ النبوَّةِ علىٰ خواصِّ الأشياءِ . . فكذٰلكَ بانَ لي على الضرورةِ أنَّ أدويةَ العباداتِ بحدودِها ومقاديرِها المحدودةِ المقدَّرةِ مِنْ جهةِ الأنبياءِ ، لا يُدرَكُ وجْهُ تأثيرِها ببضاعةِ عقْلِ العقلاءِ ، بلْ يجبُ فيها تقليدُ الأنبياءِ الذينَ أدركوا تلكَ الخواصَّ بنورِ النبوَّةِ ، لا ببضاعةِ العقْلِ .

تركيب أدوية القلوب متفاوت النوع والمقدار

وكما أنَّ الأدويةَ تُركَّبُ مِنْ أخلاطٍ مختلفةِ النوعِ والمقدارِ ، وبعضُها ضِعفُ البعضِ في الوزنِ والمقدارِ ، ولا يخلو ٱختلافُ مقاديرِها عنْ سرٍّ هُوَ مِنْ قَبيلِ الخواصِّ . . فكذٰلكَ العباداتُ التي هِيَ أدويةُ داءِ القلوبِ مركَّبةٌ مِنْ أفعالٍ مختلفةِ النوعِ والمقدارِ ؛ حتَّىٰ إنَّ السجودَ ضِعْفُ الركوعِ ، وصلاةَ الصبْحِ نصْفُ صلاةِ العصرِ في المقدارِ ، فلا يخلو عنْ سرٍّ مِنَ الأسرارِ ، هِيَ مِنْ قَبيلِ الخواصِّ التي لا يُطَّلَعُ عليها إلَّا بنورِ النبوَّةِ .

استنباط حكم العبادات بالعقل حمق ظاهر

فقدْ تحامقَ وتجاهلَ جدّاً مَن أرادَ أنْ يستنبطَ بطريقِ العقلِ لها حكمةً ، أوْ ظنَّ أنَّها ذُكِرَتْ علىٰ سبيلِ الاتِّفاقِ ، لا عنْ سرٍّ إلٰهيٍّ فيها يقتضيها بطريقِ الخاصِّيَّةِ .

النوافل والسنن متممات لآثار أركان العبادات

وكما أنَّ في الأدويةِ أصولاً هِيَ أركانُها ، وزوائدَ هِيَ متمِّماتُها ، لكلِّ واحدٍ منْها خصوصُ تأثيرٍ في أعمالِ أصولِها . . كذٰلكَ النوافلُ والسننُ متمِّماتٌ لتكميلِ آثارِ أركانِ العباداتِ .

فائدة العقل : أنه سلّمنا لأطباء القلوب

وعلى الجملةِ : فالأنبياءُ أطبَّاءُ أمراضِ القلوبِ ، وإنَّما فائدةُ العقلِ وتصرُّفُهُ أنْ عرَّفَنا ذٰلكَ ، وشهدَ للنبوَّةِ بالتصديقِ ، ولنفسِهِ بالعمىٰ عنْ دَرَكِ ما يُدرَكُ بعينِ النبوَّةِ ، وأخذَ بأيدينا وسلَّمَنا إليها تسليمَ العُميانِ إلى القائدينَ ، وتسليمَ المرضى المتحيّرينَ إلى الأطبَّاءِ المشفقينَ ، فإلىٰ هٰهنا مَجرى العقل ومَخطاهُ[1] ، وهُوَ معزولٌ عمَّا بعدَ ذٰلكَ ، إلَّا عنْ تفهُّمِ ما يُلقيهِ الطبيبُ إليهِ .

فهٰذهِ أمورٌ عرفْناها بالضرورةِ الجاريةِ مَجرى المشاهدةِ في مدَّةِ الخلوةِ والعُزلةِ .

أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بالنبوة

ثُمَّ رأينا فتورَ الِاعتقاداتِ في أصلِ النبوَّةِ ، ثُمَّ في حقيقةِ النبوَّةِ ، ثُمَّ في العملِ بما شرحَتْهُ النبوَّةُ ، وتحقَّقْنا شُيوعَ ذٰلكَ بينَ الخلقِ ، فنظرْتُ إلىٰ أسباب فتورِ الخلقِ وضعفِ إيمانِهِمْ بها ؛ فإذا هِيَ أربعةٌ :

---

(١) اسم مكان من (خطا يخطو) مثل قوله : (مجرىٰ) .

ـ سببٌ مِنَ الخائضينَ في علمِ الفلسفةِ .

ـ وسببٌ مِنَ الخائضينَ في طريقِ التصوُّفِ .

ـ وسببٌ مِنَ المنتسبينَ إلىٰ دعوى التعليمِ .

ـ وسببٌ مِنْ معاملةِ الموسومينَ بالعلمِ فيما بينَ الناسِ .

كيفية استنباط هـٰذه الأسباب

فإنِّي تتبَّعتُ مدَّةً آحادَ الخلقِ ، أسألُ مَنْ يُقصِّرُ منْهُمْ في متابعةِ الشرعِ ، وأسألُهُ عنْ شبهتِهِ ، وأبحثُ عنْ عقيدتِهِ وسرِّهِ ، وقلتُ لهُ : ما لكَ تقصِّرُ فيها ؟

فإنْ كنتَ تؤمنُ بالآخرةِ ولستَ تستعدُّ لها وتبيعُها بالدنيا . . فهـٰذِهِ حماقةٌ ؛ فإنَّكَ لا تبيعُ الاثنينِ بواحدٍ ، فكيفَ تبيعُ ما لا نهايةَ لهُ بأيَّامٍ معدودةٍ ؟!

وإنْ كنتَ لا تؤمنُ بها . . فأنتَ كافرٌ ؛ فدبِّرْ لنفسِكَ في طلبِ الإيمانِ ، وانظرْ ما سببُ كفرِكَ الخفيِّ الذي هُوَ مذهبُكَ باطناً ، وهُوَ سببُ جرأتِكَ ظاهراً وإنْ كنتَ لا تصرِّحُ بهِ ؛ تجمُّلاً بالإيمانِ ، وتشرُّفاً بذكْرِ الشرعِ .

شبهة الاحتجاج بمخالفة العلماء للشرع

فقائلٌ يقولُ : هـٰذا أمرٌ لوْ وجبَتِ المحافظةُ عليهِ . . لكانَ العلماءُ أجدرَ بذلكَ ، وفلانٌ مِنَ المشاهيرِ بينَ الفضلاءِ لا

يصلِّي ، وفلانٌ يشربُ الخمرَ ، وفلانٌ يأكلُ أموالَ الأوقافِ وأموالَ اليتامىٰ ، وفلانٌ يأكلُ إدرارَ السلطانِ ولا يحترزُ عنِ الحرامِ ، وفلانٌ يأخذُ الرِّشوةَ على القضاءِ والشهادةِ ، وهلُمَّ جرّاً إلىٰ أمثالِهِ !!

شبهة ادعاء الترقي عن العبادة

وقائلٌ ثانٍ يدَّعي علمَ التصوُّفِ ، ويزعُمُ أنَّهُ قدْ بلغَ مبلغاً ترقَّىٰ عنِ الحاجةِ إلى العبادةِ .

شبهة أهل الإباحة وخدع أهل التعليم

وقائلٌ ثالثٌ يتعلَّلُ بشبهةٍ أخرىٰ مِنْ شبهاتِ أهلِ الإباحةِ ، وهٰؤلاءِ همُ الذينَ ضلُّوا عنِ التصوُّفِ .

وقائلٌ رابعٌ لقيَ أهلَ التعليمِ فيقولُ : الحقُّ مشكِلٌ ، والطريقُ إليهِ سدٌّ ، والِاختلافُ فيهِ كثيرٌ ، وليسَ بعضُ المذاهبِ أولىٰ مِنَ البعضِ ، وأدلَّةُ العقولِ متعارضةٌ ، فلا ثقةَ برأيِ أهلِ الرأيِ ، والداعي إلى التعليمِ متحكِّمٌ لا حُجَّةَ لهُ ، فكيفَ نَدَعُ اليقينَ بالشكِّ ؟!

منتهى إيمان الفلاسفة الإلهيين

وقائلٌ خامسٌ يقولُ : لستُ أفعلُ هٰذا تقليداً ، ولٰكنِّي قرأتُ علمَ الفلسفةِ ، وأدركتُ حقيقةَ النبوَّةِ ، وأنَّ حاصلَها يرجعُ إلى الحكمةِ والمصلحةِ ؛ فإنَّ المقصودَ مِنْ تعبُّداتِها ضبْطُ عوامِّ الخلقِ ، وتقييدُهُمْ عنِ التقاتلِ والتنازعِ والاسترسالِ في الشهواتِ ، فما أنا مِنَ العوامِّ الجهلاءِ حتَّىٰ أدخلَ في

حجْرِ التكليفِ ، وإنَّما أنا مِنَ الحكماءِ ، أتَّبعُ الحكمةَ وأنا بصيرٌ بها ، مستغنٍ فيها عنِ التقليدِ !!

هـٰذا منتهىٰ إيمانِ مَنْ قرأَ فلسفةَ الإلـٰهيّينَ منْهُمْ ، ويُعلَمُ ذٰلكَ مِنْ كتبِ ابنِ سينا وأبي نصْرِ الفارابيِّ ، وهـٰؤلاءِ هُمُ المتجمِّلونَ منْهُمْ بالإسلامِ .

ردُّ المؤلف على بعض شبه الفلاسفة

وربَّما ترى الواحدَ منْهُمْ يقرأُ القرآنَ ، ويحضرُ الجماعاتِ والصلواتِ ، ويعظِّمُ الشريعةَ بلسانِهِ ؛ ولـٰكنَّهُ معَ ذٰلكَ : لا يتركُ شربَ الخمرِ ، وأنواعاً مِنَ الفسقِ والفجورِ .

وإذا قِيلَ لهُ : إنْ كانتِ النبوَّةُ غيرَ صحيحةٍ . . فلمَ تصلِّي ؟

فربَّما يقولُ : رياضةَ الجسدِ ، وعادةَ أهلِ البلدِ ، وحفظَ المالِ والولدِ .

وربَّما قالَ : الشريعةُ صحيحةٌ ، والنبوَّةُ حقٌّ .

فيُقالُ : فلِمَ تشربُ الخمرَ ؟

فيقولُ : إنَّما نُهِيَ عنِ الخمرِ ؛ لأنَّها تورثُ العداوةَ والبغضاءَ ، وأنا بحكمتي محترزٌ عنْ ذٰلكَ ، وإنَّما أقصِدُ بهِ شحْذَ خاطري .

حتَّىٰ إنَّ ابنَ سينا ذكرَ في وصيَّةٍ لهُ كتبَ فيها : إنَّهُ

عاهدَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كذا وكذا ، وأنْ يعظِّمَ الأوضاعَ الشرعيَّةَ ، ولا يقصِّرَ في العباداتِ الدينيَّةِ ، ولا يشربَ تلهِّياً بلْ تداوياً وتشفِّياً !!

فكانَ منتهىٰ حالتِهِ في صفاءِ الإيمانِ ، والتزامِ العباداتِ . . أنِ استثنىٰ شربَ الخمرِ لغرضِ التشفِّي ؛ فهاذا إيمانُ مَنْ يدَّعي الإيمانَ منْهُمْ .

﴿﴾ ﴿﴾ ﴿﴾

وقدِ انخدعَ بهمْ جماعةٌ ، وزادَهُمُ انخداعاً ضعفُ اعتراضِ المعترضينَ عليهِمْ ؛ إذِ اعترضوا عليهِمْ بمجاحدةِ علمِ الهندسةِ والمنطقِ وغيرِ ذٰلكَ ممَّا هُوَ ضروريٌّ لهمْ علىٰ ما نبَّهْنا عليهِ منْ قبلُ .

المؤلف هو الطبيب عند عموم الداء ومرض الأطباء

فلمَّا رأيتُ أصنافَ الخلقِ قدْ ضعُفَ إيمانُهُمْ إلىٰ هاذا الحدِّ بهاذهِ الأسبابِ ، ورأيتُ نفسي طَبّاً[١] بكشْفِ هاذهِ الشبَهِ ، حتَّىٰ كانَ إفضاحُ هاؤلاءِ أيسرَ عندي وأهونَ مِنْ شَربةِ ماءٍ ؛ لكثرةِ خوضي في علومِهِمْ وطرقِهِمْ ؛ أعني : طرقَ الصوفيَّةِ والفلاسفةِ والتعليميَّةِ والمترسِّمينَ مِنَ العلماءِ . . انقدحَ في نفسي أنَّ ذٰلكَ متعيِّنٌ عليَّ في هاذا الوقتِ محتومٌ ، فماذا تنفعُكَ الخلوةُ ، وأنَّىٰ تغنيكَ العُزلةُ ؟!

تحرك النفس لترك العزلة

---

(١) الطَّبُّ : الحاذق الماهر بعلمه .

فقدْ عمَّ الداءُ ، ومرضَ الأطبَّاءُ ، وأشرفَ الخلقُ على الهلاكِ .

إيثار النفس للعزلة

ثُمَّ قلتُ في نفسي : فمتىٰ تستقلُّ أنتَ بكشفِ هـٰذهِ الغمَّةِ ، ومصادمةِ هـٰذهِ الظلمةِ الملمَّةِ ، والزمانُ زمانُ الفترةِ ، والدورُ دورُ الباطلِ ؟!

ولوِ ٱشتغلتَ بدعوةِ الخلْقِ عنْ طرقِهِمْ إلى الحقِّ . . لعاداك أهلُ الزمانِ بأجمعِهِمْ ، وأنَّىٰ تقاومُهُمْ وكيفَ تقاسيهِمْ ، ولا يتِمُّ ذٰلكَ إلَّا بزمانٍ مساعدٍ ، وسلطانٍ متديِّنٍ قاهرٍ ؟!

فترخَّصتُ بيني وبينَ اللهِ تعالىٰ بالِاستمرارِ على العزلةِ تعلُّلاً بالعجزِ عنْ إظهارِ الحقِّ بالحُجَّةِ .

إلـزام السـلطان للمؤلف بالرد على الأباطيل

فقدَّرَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أنْ حرَّكَ داعيةَ سلطانِ الوقتِ مِنْ نفسِهِ ، لا بتحريكٍ مِنْ خارجٍ ، فأمَرَ أمْرَ إلزامٍ بالنهوضِ إلىٰ نَيسابورَ ؛ لتدارُكِ هـٰذهِ الفترةِ .

وبلغَ الإلزامُ حدّاً كانَ ينتهي لوْ أصررْتُ على الخلافِ إلىٰ حدِّ الوَحْشَةِ ، فخطرَ لي أنَّ سببَ الرخصةِ قدْ ضعُفَ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ باعثُكَ علىٰ ملازمةِ العزلةِ الكسَلَ والِاستراحَةَ ، وطلبَ عزَّةِ النفسِ ، وصونَها عنْ أذى الخلقِ ، ولِمَ ترخِّصُ لنفسِكَ بعسْرِ مقاساةِ الخلقِ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

ويقولُ عزَّ وجلَّ لرسولِهِ وهُوَ أعزُّ خلقِهِ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ويقولُ عزَّ وعلا : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يسٓ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ . . . ﴾ الآيةَ ؟![2] .

الإمام حجة الإسلام مجدد المئة الخامسة

فشاورتُ في ذٰلكَ جماعةً مِنْ أربابِ القلوبِ والمشاهداتِ ، فاتَّفقوا على الإشارةِ بتركِ العزلةِ ، والخروجِ مِنَ الزاويةِ .

وانضافَ إلىٰ ذٰلكَ مناماتٌ مِنَ الصالحينَ كثيرةٌ متواترةٌ ؛ تشهدُ بأنَّ هٰذهِ الحركةَ مبدأُ خيرٍ ورشدٍ قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ رأسِ هٰذهِ المئةِ ، وقدْ وعدَ اللهُ سبحانَهُ بإحياءِ دينِهِ علىٰ رأسِ كلِّ مئةٍ[3] .

---

(١) وهي بتمامها : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴾ .

(٢) وهي بتمامها : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ .

(٣) كما رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٥٢١) ، وأبو داوود (٤٢٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

تاريخ الخروج ومدة العزلة وما بعدها

فٱستحكمَ الرجاءُ ، وغلبَ حسنُ الظنِّ بسببِ هٰذهِ الشهاداتِ ، ويسَّرَ اللهُ الحركةَ إلىٰ نَيسابورَ ؛ للقيامِ بهٰذا المهِمِّ في ذي القعدةِ ، سنةَ تسعٍ وتسعينَ وأربعِ مئةٍ .

وكانَ الخروجُ مِنْ بغداذَ في ذي القعدةِ ، سنَة ثمانٍ وثمانينَ ، وبلغتْ مدَّةُ العزلةِ إحدىٰ عشرةَ سنةً .

الخروج من الخلوة لم يكن يخطر ببال الإمام الغزالي لولا إرادة الله تعالىٰ

وهٰذهِ حركةٌ قدَّرَها اللهُ تعالىٰ ، وهِيَ مِنْ عجائبِ تقديراتِهِ التي لمْ يكنْ لها ٱنقداحٌ في القلبِ في مُدَّةِ العزلةِ ؛ كما لمْ يكنِ الخروجُ مِنْ بغداذَ ، والنزوعُ عنْ تلكَ الأحوالِ ممَّا يخطرُ إمكانُهُ أصلاً بالبالِ ، واللهُ تعالىٰ مقلِّبُ القلوبِ والأحوالِ ، وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ .

اختلاف نية نشر العلم ما قبل العزلة وما بعدها

وأنا أعلمُ أنِّي وإنْ رجعْتُ إلىٰ نشرِ العلمِ . . فما رجعْتُ ؛ فإنَّ الرجوعَ عوْدٌ إلىٰ ما كانَ ، وكنتُ في ذٰلكَ الزمانِ أنشرُ العلمَ الذي بهِ يُكتسَبُ الجاهُ للجاهِ ، وأدعو إليهِ بقولي وعملي ، وكانَ ذٰلكَ قصدي ونيَّتي .

وأنا الآنَ أدعو إلىٰ نشرِ العلمِ الذي بهِ يُترَكُ الجاهُ ، ويُعرَفُ بهِ سقوطُ رتبةِ الجاهِ ، هٰذا هُوَ الآنَ نيَّتي وقصدي وأمنيَّتي ، يعلمُ اللهُ ذٰلكَ منِّي ، وإنَّما أبغي أنْ أصلحَ نفسي وغيري ، ولستُ أدري : أصِلُ إلىٰ مرادي أمْ أُحرَمُ عنْ غرضي ؟

تفويض الأمر لله فيما نواه من الإخلاص

لـٰكنِّي أومنُ إيمانَ يقينٍ ومشاهدةٍ أنَّهُ لا حولَ لي ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ ، وأنِّي لمْ أتحرَّكْ لـٰكنَّهُ حرَّكَني ، وأنِّي لمْ أعملْ ولـٰكنَّهُ ٱستعملَني .

فأسألُهُ أن يصلحَني أوَّلاً ، ثُمَّ يصلِحَ بي ، ويهديَني ، ثُمَّ يهديَ بي ، وأن يريَني الحقَّ حقّاً ويرزقَني ٱتِّباعَهُ ، وأن يريَني الباطلَ باطلاً ويرزقَني ٱجتنابَهُ .

علاج أسباب ضعف الإيمان

ونعودُ الآنَ إلىٰ ما ذكرْناهُ مِنْ أسبابِ ضعْفِ الإيمانِ ، ونذكرُ طريقَ إرشادِهِمْ وإنقاذِهِمْ مِنْ مهالكِهِمْ :

علاج السبب الأول ممن ادعى الحيرة

أمَّا الذينَ ٱدَّعَوا الحَيرةَ بما سمعوهُ مِنْ أهلِ التعليمِ . . . فعلاجُهُمْ ما ذكرْناهُ في كتابِ « القِسطاسِ المستقيمِ »[1] ، ولا نطوِّلُ بذكرِهِ في هـٰذهِ الرسالةِ .

علاج السبب الثاني ممـا توهمه أهل الإباحة

وأمَّا ما توهَّمَهُ أهلُ الإباحةِ[2] . . فقدْ حصرْنا شبهَهُمْ في سبعةِ أنواعٍ ، وكشفْناها في كتابِ « كيمياءِ السعادةِ »[3] .

---

(١) القسطاس المستقيم (ص ٦٤) وما بعدها .

(٢) أهل الإباحة : فرقة ممَّن يدعي التصوُّف ، قالوا : ليس لنا قدرة على اجتناب المعاصي ولا إتيان المأمورات ، وليس لأحد في العالم ملك رقبة ، ولا ملك يد ، والجميع مشتركون في الأموال والأزواج .

(٣) هو كتاب « كيمياء السعادة والعلوم » ألفه باللغة الفارسية . انظر « المنتخب ←

علاج السبب الثالث ممن أنكر النبوة بسبب الفلسفة

وأمَّا مَنْ فسدَ إيمانُهُ بطريقِ الفلسفةِ حتَّىٰ أنكرَ أصلَ النبوَّةِ . . فقدْ ذكرْنا حقيقةَ النبوَّةِ ووجودَها بالضرورةِ ؛ بدليلِ وجودِ علْمِ خواصِّ الأدويةِ والنجومِ وغيرِهِما ، وإنَّما قدَّمْنا هٰذهِ المقدِّمةَ لأجلِ ذٰلكَ ، وإنَّما أوردْنا الدليلَ مِنْ خواصِّ الطبِّ والنجومِ ؛ لأنَّهُ مِنْ نفسِ علمِهِمْ ، ونحنُ نبيِّنُ لكلِّ عالمٍ بفنٍّ مِنَ العلمِ ؛ كالنجومِ ، والطبِّ ، والطبيعةِ ، والسحرِ ، والطِّلَّسْماتِ مثلاً . . مِنْ نفْسِ علمِهِ برهانَ النبوَّةِ .

ينبغي أن يكون البرهان علىٰ وفق علم الشخص

اعتقاد الحكمة دون النبوة كفر بها

وأمَّا مَنْ أثبتَ النبوَّةَ بلسانِهِ ، وسوَّىٰ أوضاعَ الشرعِ على الحكمةِ . . فهُوَ على التحقيقِ كافرٌ بالنبوَّةِ ، وإنَّما هُوَ مؤمنٌ بحكيمٍ لهُ طالعٌ مخصوصٌ ، يقتضي طالعُهُ أنْ يكونَ متبوعاً ، وليسَ هٰذا مِنَ النبوَّةِ في شيءٍ .

حقيقة الإيمان بالنبوة

بلِ الإيمانُ بالنبوَّةِ : أنْ يُقرَّ بإثباتِ طورٍ وراءَ العقلِ ، تنفتحُ فيهِ عينٌ يدركُ بها مدركاتٍ خاصَّةً ، والعقلُ معزولٌ عنْها كعزلِ السمْعِ عنْ إدراكِ الألوانِ ، والبصرِ عنْ إدراكِ الأصواتِ ، وجميعِ الحواسِّ عنْ إدراكِ المعقولاتِ .

← من السياق » (ص ٧٤) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/٤٣) .

فإن لمْ يجوِّزْ هـٰذا . . فقدْ أقمْنا البرهانَ علىٰ إمكانِهِ ، بلْ علىٰ وجودِهِ .

وإنْ جوَّز هـٰذا . . فقدْ ثبتَ أنَّ هـٰهنا أموراً تُسمَّىٰ خواصَّ ، لا يدورُ تصرُّفُ العقلِ حوالَيها أصلاً .

بلْ يكادُ العقلُ يكذِّبُها ويقضي بٱستحالتِها ؛ فإنَّ وزنَ دانقٍ مِنَ الأفيونِ سُمٌّ قاتلٌ ؛ لأنهُ يجمِّدُ الدمَ في العروقِ لفرْطِ برودتِهِ .

مثالٌ لا يصدقه إلا من جرَّبه

والذي يدَّعي علمَ الطبيعةِ يزعُمُ كلَّ ما يبرِّدُ مِنَ المركَّباتِ إنَّما يبرِّدُ بعنصرَي الماءِ والترابِ ؛ فهُما العنصرانِ الباردانِ ، ومعلومٌ أنَّ أرطالاً مِنَ الماءِ والترابِ لا يبلغُ تبريدُها في الباطن إلىٰ هـٰذا الحدِّ .

فلوْ أُخبرَ طبيعيٌّ بهـٰذا ولمْ يجرِّبْهُ . . لقالَ : هـٰذا محالٌ ؛ والدليلُ على ٱستحالتِهِ : أنَّ فيه ناريَّةً وهوائيَّةً ، والهوائيَّةُ والناريَّةُ لا تزيدُها برودةً ، فنقدِّرُ الكلَّ ماءً وتراباً ؛ فلا يوجبُ هـٰذا الإفراطَ في التبريدِ ، فبأنِ ٱنضمَّ إليهِ حارّانِ . . فألَّا يوجبَ أولىٰ ، ويقدِّرُ هـٰذا برهاناً .

وأكثرُ براهينِ الفلاسفةِ في الطبيعيَّاتِ والإلـٰهيَّاتِ مبنيٌّ

علىٰ هـٰذا الجنسِ ؛ فإنَّهُمْ تصوَّروا الأمورَ علىٰ قدْرِ ما وجدوهُ وعقَلوهُ ، وما لمْ يألَفوهُ . . قدَّروا ٱستحالتَهُ .

ولوْ لمْ تكنِ الرؤيا الصادقةُ مألوفةً ، وٱدَّعَىٰ مدَّعٍ أنَّهُ عندَ ركودِ الحواسِّ يعلمُ الغيبَ . . لأنكرَهُ المتصرِّفونَ بمثلِ هـٰذهِ العقولِ .

مثال آخر حجة علىٰ أهل الطبيعة والفلسفة

ولوْ قِيلَ لواحدٍ : هلْ يجوزُ أنْ يكونَ في الدنيا شيءٌ هُوَ مقدارُ حبَّةٍ يُوضَعُ في بلدةٍ ، فيأكلُ تلكَ البلدةَ بجملتِها ، ثُمَّ يأكلُ نفسَهُ ، فلا يبقىٰ شيءٌ مِنَ البلدةِ وما فيها ، ولا يبقىٰ هُوَ نفسُهُ . . لقالَ : هـٰذا محالٌ ، وهُوَ مِنَ الخرافاتِ !!

وهـٰذهِ حالةُ النارِ ، ينكرُها مَن لمْ يرَ النارَ إذا سمعَها ، وأكثرُ إنكارِ عجائبِ الآخرةِ هُوَ مِنْ هـٰذا القَبيلِ .

فنقولُ للفلسفيِّ : قدِ ٱضطررْتَ إلىٰ أنْ تقولَ : في الأفيونِ خاصِّيَّةٌ في التبريدِ ليسَتْ علىٰ قياسِ المعقولِ بالطبيعةِ . . فلِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ في الأوضاعِ الشرعيَّةِ مِنَ الخواصِّ في مداواةِ القلوبِ وتصفيتِها ما لا يُدرَكُ بالحكمةِ العقليَّةِ ؟ بلْ لا يُبصَرُ ذٰلكَ إلَّا بعينِ النبوَّةِ ؟

بلْ قدِ ٱعترفوا بخواصَّ هِيَ أعجبُ مِنْ هـٰذا ممَّا أوردوهُ

من العجب نفيهم خواص الأوضاع الشرعية واعترافهم بخواص بعض الطلسمات

في كتبِهِمْ ؛ وهِيَ مِنَ الخواصِّ العجيبةِ المجرَّبةِ بمعالجةِ الحاملِ التي عَسُرَ عليها الطَّلْقُ بهٰذا الشكلِ [١] :

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

يُكتَبُ هٰذا الشكلُ علىٰ خزفتينِ [٢] لمْ يصبْهُما ماءٌ ، وتنظرُ إليهِما الحاملُ بعينِها ، وتضعُهُما تحتَ قدمَيها ؛ فيسرعُ الولدُ في الحالِ إلى الخروجِ ، وقدْ أقرُّوا بإمكانِ ذٰلكَ ، وأوردوهُ في عجائبِ الخواصِّ ؛ وهُوَ شكلٌ فيهِ تسعةُ بيوتٍ ، يُرقَمُ فيها رُقومٌ مخصوصةٌ ، يكونُ مجموعُ ما في جدولٍ واحدٍ خمسةَ عشرَ ؛ قرأتَهُ في طولِ الشكلِ أوْ في عرضِهِ أوْ على التأريبِ [٣] .

❁ ❁ ❁

خواص غير معقولة لا تُدرك إلا بنور النبوة

فليتَ شِعْري ؛ مَنْ يصدِّقُ بذٰلكَ . . لِمَ لمْ يتسعْ عقلُهُ للتصديقِ بأنَّ تقديرَ صلاةِ الصبحِ بركعتينِ ، والظهرِ بأربعٍ ، والمغربِ

---

(١) وهو بحساب الجمَّل كما رسم في النسخ (ب ، د ، هـ ، و) :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

(٢) في (ب) : (خرقتين) .

(٣) التأريب : قراءة المجموع من زاوية عليا يمنىٰ لأخرىٰ سفلىٰ يسرىٰ ، أو بالعكس .

بثلاثٍ هِيَ لخواصَّ غيرِ معقولةٍ بنظرِ العقلِ والحكمةِ ، وسببُها ٱختلافُ هٰذهِ الأوقاتِ ، وإنَّما تُدرَكُ هٰذهِ الخواصُّ بنورِ النبوَّةِ ؟!

❁ ❁ ❁

والعجبُ أنَّا لوْ غيَّرْنا العبارةَ إلىٰ عبارةِ المنجِّمينَ . . لعقَلوا ٱختلافَ هٰذهِ الأوقاتِ !!

فنقولُ : أليسَ يختلفُ الحكْمُ في الطالِعِ ؛ بأنْ تكونَ الشمسُ في وسطِ السماءِ ، أوْ في الطالعِ ، أوْ في الغارِبِ ؛ حتَّىٰ يبنوا علىٰ هٰذا في تسييراتِهِمُ ٱختلافَ الهَيْلاجِ[1] ، وتفاوتَ الأعمارِ والآجالِ ، ولا فرْقَ بينَ الزوالِ وبينَ كوْنِ الشمْسِ في وسطِ السماءِ ، ولا بينَ المغربِ وبينَ كوْنِ الشمسِ في الغارِبِ .

فهلْ لتصديقِهِ سببٌ إلَّا أنَّ ذٰلكَ سمعَهُ بعبارةِ منجِّمٍ لعلَّهُ جرَّبَ كذبَهُ مئةَ مرةٍ ، ولا يزالُ يعاودُ تصديقَهُ ؟ حتَّىٰ لوْ قالَ لهُ المنجِّمُ : إذا كانتِ الشمسُ في وسطِ السماءِ ونظرَ إليها الكوكبُ الفلانيُّ ، والطالعُ هُوَ البرجُ الفلانيُّ ، فلبِسْتَ ثوباً جديداً في ذٰلكَ الوقتِ . . قُتلْتَ في ذٰلكَ الثوبِ ؛ فإنَّهُ لا يلبَسُ الثوبَ في ذٰلكَ الوقتِ ، وربَّما يقاسي البردَ الشديدَ ، وربَّما سمعَهُ مِنْ منجِّمٍ وقدْ عرفَ كذبَهُ مرّاتٍ !!

❁ ❁ ❁

---

(١) الهَيْلاج : دليل العمر ، والتسيير : أن ينظر كم بين الهيلاج وبين السعد أو النحس ، فيؤخذ لكل درجة سنة .

من يصدق هٰذه الترهات كيف لا يصدق قول الأنبياء

فليتَ شِعْري ؛ مَن يتَّسعُ عقلُهُ لقَبولِ هٰذهِ البدائعِ ، ويضطرُّ إلى الاعترافِ بأنَّها خواصٌّ معرفتُها معجزةُ بعضِ الأنبياءِ . . كيفَ ينكرُ مثلَ ذٰلكَ فيما يسمعُهُ مِنْ قولِ نبيٍّ صادقٍ مؤيَّدٍ بالمعجزاتِ ، لمْ يُعرَفْ بالكذبِ قطُّ ؟!

فإنْ أنكرَ فلسفيٌّ إمكانَ هٰذهِ الخواصِّ في أعدادِ الركَعاتِ ، ورمـيِ الجمارِ ، وعددِ أركانِ الحجِّ ، وسـائرِ تعبُّداتِ الشـرعِ . . لمْ يجدْ بينَهُ وبينَ خواصِّ الأدويةِ والنجومِ فرقاً أصلاً .

❁ ❁ ❁

تحريجة : صدَّقتُ بعضَ ما جربته فكيف أصدِّق ما لم أجرّبه ؟!

فإنْ قالَ : قدْ جرَّبتُ شيئاً مِنَ النجومِ وشيئاً مِنَ الطبِّ ، فوجدتُ بعضَهُ صادقاً ، فانقدحَ في نفسي تصديقُهُ ، وسقطَ مِنْ قلبي استبعادُهُ ونَفرتُهُ ، وهٰذا لمْ أجرِّبْهُ ، فبِمَ أعلمُ وجودَهُ وتحقُّقَهُ وإنْ أقررْتُ بإمكانِهِ ؟

فأقولُ : إنَّكَ لا تقتصرُ علىٰ تصديقِ ما جرَّبتَهُ ، بلْ سمعْتَ أخبارَ المجرِّبينَ وقلَّدتَهُمْ ، فاسمعْ أقوالَ الأولياءِ[1] ؛ فقدْ جرَّبوهُ وشاهدوا الحقَّ في جميعِ ما وردَ بهِ الشرعُ ، أوِ اسلُكْ سبيلَهُمْ . . تُدرِكْ بالمشاهدةِ بعضَ ذٰلكَ .

❁

الأب الطبيب والولد المريض

علىٰ أنِّي أقولُ : وإن لمْ تجرِّبْ . . فيقضي عقلُكَ بوجوبِ

(١) في (ب ، ز) : (الأنبياء) .

التصديقِ والاتّباعِ قطعاً ؛ فإنَّا لوْ فرضْنا رجلاً بلغَ وعقَلَ ولمْ يجرّبْ ، ومرضَ ولهُ والدٌ مشفِقٌ حاذقٌ بالطبِّ ، يسمعُ دعواهُ معرفةَ الطبِّ منذُ عقلَ ، فعجنَ لهُ والدُهُ دواءً ، وقالَ : هٰذا يصلحُ لمرضِكَ ، ويَشفيكَ مِنْ سقمِكَ . . فماذا يقتضيهِ عقلُهُ وإنْ كانَ الدواءُ مرّاً كريهَ المذاقِ ؛ أنْ يتناولَ ، أوْ يكذِّبَ ويقولَ : أنا لا أعقلُ مناسبةَ هٰذا الدواءِ لتحصيلِ الشفاءِ ، ولمَ أُجَرِّبْهُ ؟

فلا أشُكُّ أنَّكَ تستحمقُهُ إنْ فعلَ ذٰلكَ ؛ وكذٰلكَ يستحمقُكَ أهلُ البصائرِ في توقُّفِكَ .

معرفة شفقة النبي والأب بقرائن الأحوال

فإنْ قلتَ : فبمَ أعرفُ شفقةَ النبيِّ ومعرفتَهُ بهٰذا الطبِّ ؟

فأقولُ : وبمَ عرفتَ شفقةَ أبيكَ ؟ ليسَ ذٰلكَ أمراً محسوساً ؛ لٰكنْ عرفتَهُ بقرائنِ أحوالِهِ ، وشواهدِ أعمالِهِ في مصادرِهِ ومواردِهِ ، علماً ضروريّاً لا يُتمارىٰ فيهِ .

ومَن نظرَ في أقوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وما وردَ مِنَ الأخبارِ في اهتمامِهِ بإرشادِ الخلقِ ، وتلطُّفِهِ في جرِّ الناسِ بأنواعِ الرفقِ واللطفِ إلىٰ تحسينِ الأخلاقِ وإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ، وبالجملةِ إلىٰ ما يصلحُ بهِ دينُهُمْ ودنياهُمْ . . حصلَ لهُ علْمٌ ضروريٌّ بأنَّ شفقتَهُ علىٰ أمَّتِهِ أعظَمُ مِنْ شفقةِ الوالدِ علىٰ ولدِهِ .

منهاج تحصيل العلم الضروري بصدق النبي صلى الله عليه وسلم

وإذا نظرَ إلىٰ عجائبِ ما ظهرَ عليهِ مِنَ الأفعالِ ، وإلىٰ عجائبِ الغيبِ الذي أخبرَ عنْهُ في القرآنِ وفي الأخبارِ ، وإلىٰ ما ذكرَهُ في آخرِ الزمانِ وظهورِ ذٰلكَ كما ذكرَهُ . . عِلمَ علماً ضرورياً أنَّهُ بلغَ الطورَ الذي وراءَ العقْلِ ، وانفتحَ لهُ العينُ التي ينكشفُ منْها الغيبُ والخواصُّ والأمورُ التي لا يدركُها العقلُ ، وهٰذا هُوَ منهاجُ تحصيلِ العلْمِ الضروريِّ بصدقِ النبيِّ عليهِ السلامُ .

فجرِّبْ وتأمَّلِ القرآنَ وطالعِ الأخبارَ . . تعرفْ ذٰلكَ بالعِيانِ .

وهٰذا القدْرُ يكفي في تنبيهِ المتفلسفةِ ، ذكرْناهُ لشدَّةِ الحاجةِ إليهِ في هٰذا الزمانِ .

علاج السبب الرابع ممن ضعف إيمانه بثلاثة أمور

وأمَّا السببُ الرابعُ[1] ؛ وهُوَ ضعْفُ الإيمانِ بسببِ سوءِ سيرةِ العلماءِ . . فيُداوىٰ هٰذا المرضُ بثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنْ نقولَ : العالِمُ الذي تزعُمُ أنَّهُ يأكلُ الحرامَ . . معرفتُهُ بتحريمِ الحرامِ كمعرفتِكَ بتحريمِ الخمْرِ ولحمِ الخنزيرِ والزنا ، بلْ بتحريمِ الغِيبةِ والكذبِ والنميمةِ ، وأنتَ تعرفُ ذٰلكَ وتفعلُهُ ، لا لعدمِ إيمانِكَ بأنَّهُ معصيةٌ ، بلْ لشهوتِكَ الغالبةِ

غلبة الشهوة محمل هفوة العلماء

عليكَ ، فشهوتُهُ كشهوتِكَ وقدْ غلبَتْهُ ، فعلمُهُ بمسائلَ وراءَ

(١) من أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بالنبوة .

هٰذا يتميَّزُ بهِ عنْكَ ، لا يناسبُ زيادةَ زجْرٍ عنْ هٰذا المحظورِ المعيَّنِ .

وكمْ مِنْ مؤمنٍ بالطبِّ لا يصبرُ عنِ الفاكهةِ وعنِ الماءِ الباردِ وإنْ زجرَهُ الطبيبُ عنْهُ !! ولا يَدلُّ ذٰلكَ علىٰ أنَّهُ غيرُ ضارٍّ ، أوْ علىٰ أنَّ الإيمانَ بالطبِّ ليسَ بصحيحٍ .

فهٰذا محملُ هفوةِ العلماءِ .

قد يغترُّ العالم بعلمه فيترك العمل

الثاني : أنْ يُقالَ للعاميِّ : ينبغي أنْ تعتقدَ أنَّ العالمَ اتخذَ علمَهُ ذخراً لنفسِهِ في الآخرةِ ، ويظنُّ أنَّ علمَهُ ينجيهِ ويكونُ شفيعاً لهُ ، حتَّىٰ يتساهلَ معَهُ في أعمالِهِ لفضيلةِ علمِهِ ، وإنْ جازَ أنْ يكونَ علمُهُ زيادةَ حُجَّةٍ عليهِ . . فهُوَ يجوزُ أنْ يكونَ زيادةَ درجةٍ لهُ ، وهُوَ ممكنٌ ؛ فهُوَ وإنْ تركَ العملَ فيُدلي بالعلمِ .

أمَّا أنتَ أيُّها العاميُّ ؛ إذا نظرتَ إليهِ فتركتَ العملَ وأنتَ عنِ العلْمِ عاطلٌ . . فتهلِكُ بسوءِ عملِكَ ولا شفيعَ لكَ .

❊ ❊ ❊

العالم الحقيقي هو القدوة

الثالثُ : وهُوَ الحقيقةُ : أنَّ العالِمَ الحقيقيَّ لا يقارفُ معصيةً إلَّا علىٰ سبيلِ الهفوةِ ، ولا يكونُ مصرّاً على المعاصي أصلاً ؛ إذِ العلمُ الحقيقيُّ : ما يعرِّفُهُ أنَّ المعصيةَ سُمٌّ مهلِكٌ ، وأنَّ

الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدنيا ، ومَنْ عرفَ ذٰلكَ . . لا يبيعُ الخيرَ بما هُوَ أدنىٰ .

وهٰذا العلمُ لا يحصلُ بأنواعِ العلومِ التي يشتغلُ بها أكثرُ الناسِ ؛ فلذٰلكَ لا يزيدُهُمْ ذٰلكَ العلمُ إلَّا جرأةً علىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ .

أثر العلم الحقيقي

وأمَّا العلمُ الحقيقيُّ . . فيزيدُ صاحبَهُ خشيةً وخوفاً ؛ وذٰلكَ يحولُ بينَهُ وبينَ المعاصي إلَّا الهفواتِ التي لا ينفكُّ عنْها البشرُ في الفَتَراتِ ، وذٰلكَ لا يدلُّ علىٰ ضعفِ الإيمانِ ؛ فالمؤمنُ مفتَّنٌ توَّابٌ ، وهُوَ بعيدٌ عنِ الإصرارِ والإكبابِ .

❁ ❁ ❁

خاتمة الكتاب

فهٰذا ما أردتُ أنْ أذكرَهُ في ذمِّ الفلسفةِ والتعليمِ وآفاتِهِ ، وآفاتِ مَنْ أنكرَ عليهِمْ لا بطريقِهِ .

ونسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يجعلَنا ممَّنْ آثرَهُ وٱجتباهُ ، وأرشدَهُ إلى الحقِّ وهَداهُ ، وألهمَهُ ذكرَهُ حتَّىٰ لا ينساهُ ، وعصمَهُ عنْ شرِّ نفسِهِ حتَّىٰ لمْ يؤثرْ عليهِ سواهُ ، وٱستخلصَهُ لنفسِهِ حتَّىٰ لا يعبدَ إلَّا إيَّاهُ .

وصلّى الله على محمّدٍ خيرِ البشر ، وعلى أمّته خيرِ الأمم

خاتمة النسخة (أ)

نجز الكتاب بحمد الله ومنِّه ، وفرغ عبد المجيد بن الفضل القَزّازيّ الطبريُّ عن نسخه صبيحةَ يوم الجمعة ، لسبع خلون من شوال ، سنة تسع وخمس مئة ، وهو يحمد الله تعالىٰ علىٰ آلائه ، ويشكره علىٰ جميل بلائه ، وجزيل عطائه ، ويصلي على النبي محمد سيد أنبيائه ، وعلىٰ آله ويسلِّم ، وحسبنا الله وحدَهُ وكفىٰ .

خاتمة النسخة (ج)

تم كتاب « المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال » ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد سيد المرسلين ، وعلىٰ آله الطيبين الآخرين ، وأصحابه الغر المحجَّلين ، وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين ، وحسبنا الله حسبي به ونعم الوكيل .

خاتمة النسخة (و)

تم الكتاب بحمد الله تعالىٰ وحسن توفيقه بكرة الثلاثاء ، تاسع عشر محرم ، سنة سبع وست مئة ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين .

❋ ❋ ❋

خاتمة العناية بهذا الكتاب

تم بعون الله تعالى الانتهاء من تحقيق هـٰذا الكتاب النافع وتصحيحه مساء يوم الاثنين ، الخامس عشر من شهر رجب الأحب ، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من هجرة سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم .

الموافق للرابع من شهر يونيو (حزيران) ، سنة اثني عشر وألفين للميلاد بدمشق الشام حماها الله وسائر بلاد المسلمين من مكر الماكرين وكيد الكائدين ، سائلاً الله أن يتقبل منا هـٰذا العمل ، وأن ينفع به المسلمين ، إنه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله .

وكتبه

محمد غسان نصوح عزقول الحسيني

المشرف على أعمال البحوث والنشر

بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

ابن سينا : الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي البخاري .

فيلسوف ، ورياضي ، وطبيب ، وكيميائي ، وشاعر .

ولد قرب بخارىٰ ، وكان والده متصرفاً ؛ أي : جامعاً للأموال ، فعلمه القرآن وعلوم الدين ، وأجادها ابن سينا قبل أن يبلغ العاشرة .

ثم بدأ دراسته للطب علىٰ يد جهابذة عصره ، وشرع يأخذ علومه من الكتب والناس في الأسواق ، ووقع وقتئذ على الفارابي ، وقرأ له كتاباً في أعراض ما بعد الطبيعة .

وعندما بلغ ابن سينا السابعة عشرة لم يعد ينافسه في الطب أحد من معاصريه ، ولٰكن حياته اضطربت حين توفي والده وهو في الثانية والعشرين .

وقد تمتع ابن سينا منذ طفولته بعقل موسوعي ، وذاكرة ممتازة ، وقدرة فائقة على العمل والتحصيل ، وعلىٰ تحليل الأمور والتوصل إلىٰ جذور المسائل .

وقد أجاد ابن سينا العربية والفارسية وكتب بهما معاً .

ولقب ابن سينا بأمير الأطباء ، وبالشيخ الرئيس ، وبالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي .

وقد أخذ ابن سينا فلسفته عن الفارابي ، الذي نقل إليه فلسفة أرسطو ، ولٰكن ابن سينا غُشَّ في هٰذه الفلسفة الأخيرة ؛ لسوء الترجمات التي اشتغل بها الفارابي ، وبسبب الكتاب المنحول « الإلٰهيات » .

وقد انحاز ابن سينا في فلسفته ناحية الفلسفة اليونانية عامة ، فالله والخلق والكون عند ابن سينا . . مستقل كل منها عن الآخر ، والله هو أهمها جميعاً ، يسبب ولا يتسبب .

والإنسان عنده روح أو نفس وجسد ، وهو يصبو إلى الفهم والسعادة .

والإنسانية تنقسم عنده إلىٰ طبقات حاكمة وطبقات محكومة .

وفي الطب فقد طور ابن سينا ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أفكارَ كل من أبقراط وجالينوس ، وحقق في هٰذه الناحية أهم إنجازاته ؛ فقد كانت طريقته علمية لا شبهة فيها ، فكان يبدأ بوصف تشريح الأعضاء ثم يشرح الأعراض ، ثم يشخص الداء ، ثم يصف الدواء ، وقد يتحدث عن النتائج .

من أهم مؤلفات ابن سينا في الطب . . « القانون » في الأمور

الكلية ، والمفردات الطبية ، وأمراض الجسم ، والأمراض التي تتناول أكثر من عضو واحد ، والأدوية ، والمركب .

وقد اعتبر قمة الحضارة العلمية الإسلامية ؛ لحسن تبويبه ، ودقة تعبيره ، ولتناوله علوم التشريح ، ووظائف الأعضاء ، وتدبير الصحة ، والأمراض ، والأدوية .

إخوان الصفا وخلان الوفا : هم جماعة من الفلاسفة الإسلاميين العرب من أهل القرن الثالث الهجري بالبصرة ، اتحدوا علىٰ أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذٰلك العهد ، فكتبوا في ذٰلك خمسين مقالة سموها « تحف إخوان الصفا » .

انبثقت جماعة إخوان الصفا تحت تأثير الفكر الإسماعيلي في البصرة ، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

وكانت اهتمامات هٰذه الجماعة متنوعة ، وتمتد من العلوم والرياضيات إلى السياسة ، وقاموا بكتابة فلسفتهم عن طريق اثنتين وخمسين رسالة مشهورة ذاع صيتها حتىٰ في الأندلس .

ويعتبر البعض هٰذه الرسائل بمثابة موسوعة للعلوم الفلسفية .

كان الهدف المعلن من هٰذه الحركة « التظافر للسعي إلىٰ سعادة النفس عن طريق العلوم التي تطهر النفس » .

❊ ❊ ❊

أرسطوطاليس (أرسطو) : فيلسوف يوناني ، تلميذ أفلاطون ، ومعلم الإسكندر المقدوني ، مؤسس علم المنطق وله يدٌ طولىٰ في إثراء العلوم الطبيعية والفيزيائية .

ولد في مدينة (ستاغيرا) في شمال اليونان ، وكان والده طبيباً مقرباً من البلاط المقدوني .

رحل أرسطو إلىٰ أثينا للالتحاق بمعهد أفلاطون ، كطالب في البداية ، وكمدرس فيما بعد .

وأفكاره حول (الميتافيزيقيا) لا زالت هي محورَ النقاش الأول بين النقاشات الفلسفية في مختلف العصور ، وهو مبتدع علم الأخلاق الذي لا زال من المواضيع التي لم يكفَّ البشر عن مناقشتها مهما تقدمت العصور ، ويمتد تأثير أرسطو لأكثر من النظريات الفلسفية ؛ فهو مؤسس علم البيولوجيا (الأحياء) .

وعلى الرغم من غزارة إنتاج أرسطو الفكري المتمثل في محاضراته وحواراته الكثيرة . . إلا أنه لم يبق منها إلا النزر اليسير ، والتي تم جمعها تحت اسم (المجموعة الأرسطوطاليسية) .

وبعد وفاة الإسكندر المقدوني تقاعد عن التدريس ، وتوفي بعد أقل من عام من وفاة الإسكندر .

أفلاطون : فيلسوف يوناني ، يعد من أعظم الفلاسفة الأقدمين دون منازع ، وكانت أعماله الشرارة الأولى التي أشعلت جميع المسائل والأفكار الفلسفية في العالم الغربي حتى اليوم ، وكانت أيضاً الحافز الأول لظهور علم النفس والمنطق والسياسة ، و قد خلفت تلك الأعمال تأثيراتٍ عميقةً على الحياة العلمية في مختلف عصور التاريخ .

ولد أفلاطون في أثينا ، ثم إنه بعد موت سقراط اعتزل أفلاطون الحياة العامة ، وخرج منها مرتحلاً ، فسافر إلىٰ إيطاليا وصقلية ، ثم عاد بعد عام إلىٰ أثينا وأسس فيها مدرسته التي أسماها : (الأكاديمية) ، وهي معهد كرس لأعمال البحث العلمي ، وتدريس الفلسفة والعلوم ، وقد قضىٰ أفلاطون معظم حياته في هٰذا المعهد مدرساً ومشرفاً علىٰ نشاطاته حتىٰ وفاته وهو في الثمانين من عمره .

وجميع أعمال أفلاطون المكتوبة حفظت ووصلت إلينا ، وهي تتألف من حوارات حول الفلسفة وما يتعلق بها من أفكار .

جالينوس : طبيب من أشهر الأطباء المؤثرين في تاريخ الطب .

ولد جالينوس عــام (١٢٩ م) في برقاموم (بيرقاما) في تركيــة ، وهي من مدن الإمبراطورية الرومانية . وبدأ دراســة الطب في ســـن الرابعة عشرة من عمره ، وفي سنة (١٥٧ م) تقريبــاً أصبــح طبيبــاً لمحاربيــن مدربين ، كانــوا يُدْعَون (الجلاديــن) . وأعطتــه هٰذه الخبرة معلومــات مفيدة عن الجراحة والتغذية .

ســافر جالينوس إلىٰ رومــا عــام (١٦١ م) ، وألقىٰ هناك محاضرات في التشــريح وعلم وظائف الأعضاء ، وسرعان ما تــم تعيينه طبيباً لعائلة الإمبراطــور الروماني ، وقد مكنه هٰذا المنصب من أن يكتب ، ويقوم بإجراء الأبحاث .

طــور جالينــوس أول النظريــات الطبية التــي تعتمد على التجــارب العلميــة ، وقــدم كتابــه المميز في عالــم الطب « الإجراءات التشــريحية » الذي أصبح مقرراً دراسياً أساسياً في الحضارتين الغربية والشرق أوسطية ، وظل ذا تأثير في ميدانه ، حتى العصور الحديثة .

اكتشف أن الشرايين الأورطية تحتوي على الدم ، لا علىٰ مادة تشبه الهواء تدعى الهواء المضغوط كما كان يُظن .

وقد قام بتشريح القردة وبعض الحيوانات الأخرىٰ ، وأسس علم التشريح المقارن كحقل من حقول التشريح .

واعتبرت أفكاره في علم وظائف الأعضاء مصدراً موثوقاً به في أوروبة حتىٰ سنة (١٥٠٠ م) . كما استمرت طرائقه في علاج الأمراض تفيد الأطباء بصورة جيدة حتىٰ سنة (١٨٠٠ م) .

كتب جالينوس بحوثاً كثيرة في الطب ، وفي علم وظائف الأعضاء . توفي عام (٢١٠م تقريباً) .

السفسطة : اتجاه فكري فلسفي يوناني قديم ، و(سوفا) معناها : العلم والحكمة ، و(سطا) معناها : المزخرف والغلط ، وهي قياس مركَّب من الوهميات ، الغرض منه إفحام الخصم وإسكاته ، وهي أيضاً التلاعب بالألفاظ لطمس الحقائق ، والإجابة على السؤال بسؤال آخر .

والسفسطائيون يغالطون في الحسيات والبديهيات وغيرها مما أقره العقل ، أو قبلته أحوال المجتمع السليم . ثم اقتصرت السفسطة علىٰ فن الجدل ، والحرص على الغلبة ، دون التزام بالحق والفضيلة ، وأصبحت مرادفة لكلمتي التضليل والخداع .

سقراط : فيلسوف يوناني ، يُعدُّ من أعظم فلاسفة التاريخ .

ولد في أثينا وتعلم فيها ، فأحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره ؛ حيث جعل محور الفلسفة معرفةَ الإنسان نفسَه ، ودَرَسَ تصرفاته والنواميس التي تدفع إليها ، وبهٰذا أسس علم الأخلاق ؛ أي : أنه دعا إلىٰ إمعان الفكر في موجودات الكون ، وما يطرأ على الإنسان من تحولات بدلاً من رد ذٰلك إلىٰ قوىً خارجية مجهولة .

وقد اعتبرت هٰذه النظرة نقطة تحول مهمةً في الفلسفة الإنسانية ، مما حدا بعض المؤرخين إلىٰ تقسيم الفلسفة إلىٰ قسمين ؛ فلسفة ما قبل سقراط ، وفلسفة ما بعده .

كان تعليم سقراط شفهياً عن طريق السؤال والجواب ، فساعد تلاميذه على اكتشاف المعرفة بذاتهم بدلاً من اللجوء إلى الكهنة والعرافين ، كما وقف في وجه السفسطائيين ، فانتقدهم وحاربهم ، فاتهمه خصومه بالزندقة ، وحكموا عليه بالإعدام ، ففضل الموت على الهرب ؛ احتراماً لشرائع مدينته .

مات سقراط دون أن يخلف ذرية ، ودون أن يخلف أعمالاً مكتوبة ، وإنما وصلت إلينا تعاليمه من خلال الملاحظات التي كان يدونها تلاميذه ، ومن أشهرهم : أفلاطون وزينوفون .

علم الكلام : هو علمٌ يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه .

وسبب تسميته به : أن أشهر المباحث الكلامية وأكثرَها نزاعاً بين الباحثين في المسائل الاعتقادية هي مسألة (كلام الله) ، ولأنه لا يتم تحقيقه في النفس غالباً إلا بالكلام ، ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم .

وقيل أيضاً : لأن الكلام مشتق من (الكَلْمِ) وهو الجرح ؛ حيث إن الكلام في مباحث علم الكلام ينتهي بتأثير جارح في النفس .

وغايته : ١ ـ معرفةُ ذات الله تعالى ، وصفاته ، وأفعاله . ٢ ـ وتقويةُ اليقين بالدين الإسلامي عن طريق إثبات العقائد الدينية بالبراهين القطعية ، وردّ الشبه عنها . ٣ ـ وصيرورة الإيمانِ والتصديقِ بالأحكام الشرعية متقَناً محكماً . ٤ ـ والرقيّ بالمسلم من التقليد إلى اليقين .

واستمداده : من الأدلة اليقينية ؛ النقلية ، والعقلية . فالأدلة العقلية : هي استخدام العقل عن طريق النّظر في العالم الخارجيّ ؛ للتعرّف على وجود الله ، وعلى ما يجب له من الصفات وما يستحيل ، وما يجوز عليه من الأفعال ، وكذا

البحث في المعجــزة وإثبات النبوات . والأدلة النقلية : هي ما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

وكلا المصدرين اليقينيين ـ النقلي والعقلي ـ . . يستخدمان في إثبات العقائد بلا تقديم أحدهما على الآخر .

ونشأة علم الكلام : كانت محاولة للتصدي للتحديات التي فرضها الالتقاء بالديانات القديمة التي كانت موجودة في بلاد الرافدين أساساً ؛ حيث ظهرت فرق عديدة بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مثل : (المعتزلة ، والجهمية ، والخوارج ، والزنادقة ، والمجسمة) .

فكانت نشأة علم الكلام في التاريخ الإسلامي . . نتيجةَ ما اعتبره المسلمون ضرورة للرد على ما اعتبروه بدعة من قبل هٰذه الطوائف ، وكان الهدف الرئيس هو إقامةَ الأدلة وإزالةَ الشبه .

ويعتبر بعض العلماء أن جذور علم الكلام يرجع إلى الصحابة والتابعين ، ويورد البعض على سبيل المثال رد ابن عباس وابن عمر وعمر بن عبد العزيز والحسن بن محمد ابن الحنفية على المعتزلة ، ورد علي بن أبي طالب على الخوارج ، ورد إياس بن معاوية المزني على القدرية .

الفارابي : محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، أبو نصر الفارابي ، ويعرف بالمعلم الثاني ؛ لدراسته كتب أرسطو المعلم الأول ، وشرحه لها .

ولد في مدينة فاراب في تركستان ، حيث كان والده تركياً من قواد الجيش .

كان الفارابي فيلسوفاً ورياضياً فذّاً ذائع الصيت ، درس في مسقط رأسه مجموعة من المواد المختلفة ؛ كالعلوم ، والرياضيات ، والآداب ، والفلسفة ، واللغات خاصةً التركية ، والفارسية ، واليونانية ، والعربية .

وفي سن متقدمة غادر فاراب وذهب إلى العراق ؛ لمتابعة دراساته العليا ، فدرس الفلسفة ، والمنطق ، والطب .

يعدّ الفارابي أكبر الفلاسفة الإسلاميين ، ومن خصائص فلسفة الفارابي أنه حاول التوفيق من جهة بين فلسفة أرسطو وفلسفة أفلاطون ، ومن جهة أخرىٰ بين الدين والفلسفة .

ورغم شهرة الفارابي في الفلسفة والمنطق . . فقد كانت له إسهامات مهمة في علوم أخرىٰ ؛ كالرياضيات ، والطب ، والموسيقا ، والفيزياء ؛ فقد برهن في الفيزياء علىٰ وجود الفراغ .

وبعد حياة حافلة بالعطاء في شتىٰ علوم المعرفة طوال

ثمانين سنة .. توفي الفارابي أعزب بمدينة دمشق ، سنة (٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م) .

فيثاغورس : فيلسوف ورياضي يوناني .

ولد بجزيرة ساموس في بحر إيجة باليونان ، وتنسب إليه مبرهنة فيثاغورس .

اهتم اهتماماً كبيراً بالرياضيات ، وخصوصاً بالأرقام ، وقدس الرقم عشرة ؛ لأنه يمثل الكمال .

يعتقد فيثاغورس وتلاميذه أن كل شيء مرتبط بالرياضيات ، وبالتالي يمكن التنبؤ بكل شيء وقياسه بشكل حلقات إيقاعية .

استطاع فيثاغورس إثبات نظريته مبرهنة فيثاغورس في الرياضيات ، والتي تقول : في مثلث قائم الزاوية : مربع طولِ الوتر يساوي مجموع مربعي طولي الضلعين المحاذيين للزاوية القائمة ؛ عن طريق حسابه لمساحة المربعات التي تقابل كل ضلع من أضلاع المثلث قائم الزاوية .

استفاد الكثير من المهندسين في العصر الحاضر من هٰذه النظرية في عملية بناء الأراضي .

المعتزلة : فرقة كلامية ، ظهرت في البصرة أواخرَ العصر الأموي ، وقد ازدهرت في العصر العباسي .

اعتمدت المعتزلة على العقل في التحسين والتقبيح ، وقدموه على النقل ، وقالوا إنّ العقل والفطرة السليمة قادران علىٰ تمييز الحسن من القبيح بشكل تلقائي .

يعتقد أن أول ظهور للمعتزلة كان في البصرة في العراق ، ثم انتشرت أفكارهم في مختلف مناطق الدولة الإسلامية ؛ كخراسان وترمذ واليمن والجزيرة العربية والكوفة وإرمينيا ، إضافة إلىٰ بغداد .

انطوىٰ تراث المعتزلة قروناً ولم يعرف عنه سوىٰ كتاباتٍ ممن أشاروا إليهم عبوراً أو ممن عارضوهم . . إلىٰ أن اكتشف مصادفة في اليمن قبل بضعة عقود أهمُّ كتاب في مذهب الاعتزال وهو « المغني في أبواب التوحيد والعدل » للقاضي عبد الجبار .

❋ ❋ ❋

أهمّ مصادر ومراجع التّحقيق (1)

ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للزبيدي ؛ الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، المسمى : « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، لابن حبان ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي (ت ٣٥٤ هـ) ، بترتيب الإمام الحافظ الأمير علاء الدين أبي الحسن علي بن بلبان بن عبد الله الفارسي المصري الحنفي (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

---

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، واسم المؤلف وسنة وفاته ، واسم المحقق ، ورقم الطبعة ، وتاريخ طبعه ، والدار الناشرة ومقرها .

ـ إحياء علوم الدين ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

ـ أخلاق العلماء ، **للآجري** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الحجة أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

ـ البداية والنهاية ، **لابن كثير** ؛ الإمام الحافظ الفقيه المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي الدمشقي الشافعي (ت ٧٧٤ هـ) ، عني به مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (ت ١٤٢٥ هـ) والدكتور بشار عواد معروف ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

ـ بستان العارفين وسبيل الزاهدين ، **للنووي** ؛ شيخ الإسلام الحافظ المجتهد الحجة محيي الدين أبي زكريا يحيىٰ بن شرف بن مُرِّي النووي الحزامي الدمشقي الشافعي

(ت ٦٧٦ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٤ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- البيان والتبيين ، **للجاحظ** ؛ إمام البيان أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ الليثي الكناني (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٧ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام) ، **للخطيب البغدادي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **لابن عساكر** ؛ الإمام الحافظ الكبير المجود ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي الشافعي (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- تهافت الفلاسفة ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور سليمان دنيا (ت بحدود ١٤٠٧ هـ) ، ط ٨ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

- ديوان ابن المعتز ، الشاعر الأمير المبدع الغالب بالله أبي العباس عبد الله بن الخليفة المعتز بالله محمد بن المتوكل العباسي (ت ٢٩٦ هـ) ، تحقيق وشرح مجيد طراد ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- الزهد والرقائق برواية المروزي مع زيادات رواية نعيم بن حماد عليه ، لابن المبارك ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي (ت ١٨١ هـ) ، تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة الهند لدى دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- سنن ابن ماجه ، لابن ماجه ؛ الإمام الحافظ الثبت المفسر أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني (ت ٢٧٣ هـ) ، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- سنن أبي داوود ، لأبي داوود ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- سنن الترمذي ، المسمى : « الجامع الصحيح » ، للترمذي ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) والعلامة محمد فؤاد

عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) والشيخ إبراهيم عطوة عوض (ت ١٤١٧ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- سنن النسائي (المجتبىٰ) ، للنسائي ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٢ هـ ، ١٨٩٤ م) ، نسخة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، للذهبي ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ١١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- شرح العقائد النسفية ، للتفتازاني ؛ الإمام البليغ المنطقي الأصولي سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الهروي الخراساني الشافعي الحنفي (ت ٧٩٢ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد عدنان درويش ، ط ١ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م) ، نشره محققه ، دمشق ، سورية .

- صحيح البخاري ، المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية اليونينية) ، **للبخاري** ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ودار المنهاج ، بيروت ، لبنان . جدة ، المملكة العربية السعودية .

- صحيح مسلم ، المسمى : « الجامع الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، **لمسلم** ؛ حافظ الدنيا المجود الحجة أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، المملكة العربية السعودية . بيروت ، لبنان .

- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، **للتاج السبكي** ؛ الإمام الحافظ المجتهد النظار قاضي القضاة تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد الطناحي (ت ١٤١٩ هـ) والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو

(ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

ـ طبقات الفقهاء الشافعية ، لابن الصلاح ؛ الإمام الحافظ الفقيه المفتي تقي الدين أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان ابن الصلاح الكردي الشهرزوري الشافعي (ت ٦٤٣ هـ) ، هذبه ورتبه واستدرك عليه شيخ الإسلام الحافظ المجتهد محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الشافعي (ت ٦٧٦ هـ) ، وبيض أصوله ونقحه الإمام الحافظ المتقن الناقد جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمٰن بن يوسف القضاعي المزي الشافعي (ت ٧٤٢ هـ) ، تحقيق محيي الدين علي نجيب ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور سميح دغيم ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م) ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، لبنان .

ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد ، لأبي طالب المكي ؛ الإمام الفقيه شيخ الصوفية أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي الشافعي

(ت ٣٨٦ هـ) ، بعناية العلامة محمد الزهري الغمراوي (ت بعد ١٣٦٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٠ هـ ، ١٨٩٠ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، للرامهرمزي ؛ الإمام الحافظ البارع محدث العجم أبي محمد الحسن بن عبد الرحمٰن بن خلاد الرامهرمزي (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ٣ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- المراسيل ، لابن أبي حاتم ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي محمد عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، عني به شكر الله بن نعمة الله قوجاني ، ط ٢ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ؛ الإمام الحافظ الناقد شيخ المحدثين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الطهماني النيسابوري الشافعي (ت ٤٠٥ هـ) ، وبهامشه تعليقات الأئمة : البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن حجر العسقلاني ، دار الميمان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- المعجم الأوسط ، **للطبراني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- المعجم الكبير ، **للطبراني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه : « الأحاديث الطوال » ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- معرفة السنن والآثار ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار قتيبة ودار الوعي ودار الوفاء ، سورية ومصر .

- المنتخب من السياق لتكملة تاريخ نيسابور ، **للصريفيني** ؛ الإمام المحدث الفقيه الرحلة تقي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر العراقي الصريفيني الحنبلي (ت ٦٤١ هـ) ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الوافـي بالوفيـات ، **للصفـدي** ؛ الإمام المـؤرخ الأديب صلاح الديـن أبـي الصفـاء خليل بـن أيبك بـن عبـد الله الألبَكـي الصفدي الدمشقي الشافعي (ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ألمانيا .

❋ ❋ ❋

مُحتوى الكتاب

بين يدي الكتاب ١١

ترجمة المؤلف الإمام الغزالي رضي الله عنه ١٨

ـ شيوخ الإمام الغزالي ١٨

ـ اعتزاله الناس وتأليفه « الإحياء » ١٩

ـ بعض مؤلفاته رضي الله عنه ٢٠

وصف النسخ الخطية ٢٢

منهج العمل في الكتاب ٢٧

صور المخطوطات المستعان بها ٣١

« المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » ٤٣

خطبة الكتاب ٤٥

ـ سبب تأليف الكتاب ٤٥

ـ جواب المؤلف لمن سأله ٤٦

ـ الاختلاف في الأديان والمذاهب بحر عميق ٤٦

ـ جسارة الإمام في البحث عن الحقيقة ٤٧

ـ نبوغ الإمام الغزالي وانحلال رابطة التقليد عنه في سن الصبا ٤٨

- تحرُّك الباطن لطلب الحق ٤٨
- حقيقـة العلـم اليقيني وأنه الذي لا يقبل التشـكيكَ والظنَّ ٤٩
- ضرب مثلٍ للعلم اليقيني ٤٩
- كل علـم داخلَهُ الشكُّ والتظنُّن . . فليس بعلم يقيني ٤٩
القول في مداخل السفسطة وجحد العلوم ٥٠
- إحـكام الحسـيات والضروريـات لا بـدَّ منـه للتحصُّـن من الشكِّ ٥٠
- الأمان من الغلط في الضروريات هل هو من قِبَل التقليد ؟ ٥٠
- التشكيك في الحواسِّ ومدركاتها ٥٠
- بعد التشـكيك لم تأمن نفس الإمام الغزالي من الشـك في المحسَّات ٥٠
- توهُّم الشكِّ في حاسَّة البصر والتمثيل لذٰلك ٥١
- سقوط الثقة في إدراكات الحواسِّ لبعض الوقت ٥١
- تشكيك المحسَّات بالعقليات ٥١
- افتراض وجود حاكم وراء العقل يبطل حكمه ٥٢
- افتراض أن ما في اليقظة من حسي وعقلي مثل ما في النوم خيالي لا وجود له ٥٢
- مناقشة الفرضية بوضع الاحتمالات ٥٢
- مرض الإمام وابتلاؤه بفقد الثقة في الأوليَّات ٥٣
- شفاء الإمام من تلك الحيرة وعود النفس للصحة والاعتدال ٥٣

ـ سبب الشفاء نورٌ من الله لا بدليل وترتيب كلام ٥٤
ـ بيان ذٰلك النور بلسان الشريعة ٥٤
ـ هٰذا النور ينبغي طلبه والتعرُّض له ٥٥
ـ المقصود مما سبق بيان الغاية من كمال الجد في الطلب ٥٥
القول في أصناف الطالبين ٥٦
ـ بيان أن الحق لا يعدو هٰذه الفرق الأربعة ٥٦
ـ دليل حصر الطالبين في هٰذه الأصناف الأربعة ٥٦
ـ المبادرة باستقصاء ما عند هٰذه الفرق ٥٧
القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله ٥٨
ـ لم يوفِّ علم الكلام بمقصود الإمام ٥٨
ـ مقصود علم الكلام ٥٨
ـ إنزال العقيدة الحق ومحاولة المبتدعة الإخلال بها ٥٨
ـ نشأة علم الكلام بتسليط الله المتكلمينَ على المبتدعة ورد محدثاتهم ٥٨
ـ ضعف العلم الناشئ عن مسلَّمات الخصوم ٥٩
ـ سبب عدم بلوغ علم الكلام الغاية في الذب عن السنة ٥٩
ـ بيان أن حيرة الإمام لم تُشفَ بما عند أهل علم الكلام ٦٠
القول في حاصل الفلسفة ٦١
ـ الوقوف علىٰ فساد علم من العلوم بالتبحر فيه ٦١
ـ ابتعاد علماء الإسلام عن علم الفلسفة ٦١

ـ خوض الإمام الغزالي خِضَم بحر الفلسفة بحثاً عن الحق فيه ٦٢
ـ قوة اطلاع الإمام علىٰ علم الفلسفة كشفت له ما فيه من خداع وتلبيس ٦٢
ـ لزوم الكفر والإلحاد للفلاسفة ٦٢
فصل : في أصنافهم وشمول سمة الكفر كافتهم ٦٤
ـ حصر الفلاسفة في أقسام ثلاثة ٦٤
ـ أولاً : الدهريون وبيان معتقدهم ٦٤
ـ ثانياً : الطبيعيون وبيان معتقدهم ٦٤
ـ شبهة اعتقاد الطبيعيين القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ٦٥
ـ وقوعهم في إنكار الإعادة بعد العدم وكفرهم بذٰلك ٦٥
ـ ثالثاً : الإلٰهيون وبيان أساتذتهم ومعتقدهم ٦٥
ـ بردِّهم علىٰ بعضهم كُفي المؤمنون ٦٦
ـ ابن سينا والفارابي مَنْ أحسنا نقل علم أرسطاطاليس ٦٦
ـ أقسام ما صحَّ من فلسفة أرسطاطاليس مع الحكم الشرعي عليه ٦٦
فصل : في أقسام علومهم ٦٨
ـ العلوم الرياضية وآفتاها ٦٨
ـ أولى الآفتين : تحسين الاعتقاد بالفلاسفة........ ٦٨

ـ الاستدراج بتحسين الاعتقاد للوقوع في تقليدهم في الكفر ٦٩
ـ الرد علىٰ شبهة استحسانهم وتقليدهم بأن الحذق في صناعةٍ لا يعني الحذق في كل صناعة ٦٩
ـ الهوىٰ أو التعصب من المقلد هو الداء العضال ٧٠
ـ ثاني الآفتين : ضرر جهل بعض المسلمين على الإسلام ٧٠
ـ الاحتجاج بسفه جاهل مسلم علىٰ تسفيه الإسلام وتجهيله ٧٠
ـ الإسلام لا يعارض العلوم الطبيعية ٧١
ـ بيان علوم المنطقيات ٧١
ـ لا مسوغ لإنكار علم المنطق شرعاً ٧٢
ـ من بعض آفات علم المنطق : ظلم الدين بالتساهل في برهان المقاصد الدينية ٧٣
ـ استحسان المنطق قد يوقع في استحسان كفريات الفلسفة الممزوجة به ٧٣
ـ حقيقة علم الطبيعيات وما يبحثه ٧٣
ـ علم الطبيعيات كعلم الطب فلا ينكر إلا مسائل معينة منه ٧٣
ـ أصل جملة علم الطبيعيات ٧٤
ـ حقيقة علم الإلـٰهيات وما يشتمل عليه ٧٤
ـ سبب تأليف كتاب « تهافت الفلاسفة » ٧٥
ـ المسائل الثلاث المكفرة للفلاسفة.......... ٧٥
ـ عدم التكفير بغير الثلاث ٧٦

- حقيقة علم السياسيات وجملة ما يشتمل عليه ٧٦
- العلوم الخُلقيَّة وممن استمدوها وكيف مزجوها بعلمهم لترويج باطلهم ٧٧
- المتألهون الحقيقيون أوتاد الأرض ٧٧
- مزجهم كلام النبوة بكلام الصوفية تولد منه آفتان ٧٨
- أولى الآفتين في حق الراد وعلاجها ٧٨
- اعرف الحق تعرف أهله ٧٩
- الزجر عن مطالعة كتب أهل الضلال ٧٩
- الرد علىٰ من اعترض علىٰ كلمات مبثوثة في كتب الإمام الغزالي ٨٠
- ما يترتب علىٰ هجر الحق الذي سبق إليه الخاطر مبطل ٨٠
- أقل درجات العالم تميزه عن العامي الغمر ٨١
- غاية الضلال معرفة الحق بالرجال ٨١
- ثانية الآفتين في حق القابل ٨٢
- ضرب أمثلة متنوعة للنهي عن كتبهم لغير العلماء ٨٢
- العالم الراسخ يُظهر الامتناع مما فيه خطر على العامة ٨٣
- جوارُ الحقِّ للباطل لا يجعل الحقَّ باطلاً ٨٤
القول في مذهب التعليم وغائلته ٨٥
- ظهور الباطنية وضرورة كشف حقيقة مذهبهم ٨٥
- جمع كتبهم ومقالاتهم للرد عليهم ٨٦

ـ إنـكار الإمام أحمد على المحاسبي في تصنيفه للرد على المعتزلة وفائدة الخلاف ٨٦
ـ الـرد علىٰ شـبهة مـن أنكـر فائـدة التصنيـف للـرد عـلى المبتدعة ٨٧
ـ بيـان المراد من ذكر شـبههم وأنـه ليس بالخب ولا يخدعه ٨٧
ـ كشف خداعهم بدعواهم أنه لا بد من معلم معصوم ٨٧
ـ رد الإمام الغزالي عليهم وإفحامه لهم ٨٨
ـ جواب شبهتهم بإعمال الاجتهاد لأنه مظنة الخلاف فكيف يعمل به ٨٩
ـ مثالان بيّنان لإعمال الاجتهاد ٨٩
ـ كلٌّ مأمور باتباعِ ظنِّ نفسه ٩٠
ـ حكم المقلد عند اختلاف المجتهدين ٩٠
ـ ضرورة رد الخَلْق للاجتهاد عند الحاجة ٩٠
ـ شـبهة الباطنية الأولىٰ : أن المجتهد في قواعد العقائد غير معذور ٩١
ـ الرد علىٰ تلك الشبهة بالموازين الشرعية ٩١
ـ شبهة : مخالفة الخصم للموازين والرد عليها ٩١
ـ شبهة : لم يرفع هـٰذا الميزان الخلاف والرد عليها ٩١
ـ الشبهة الثانية : لم يلزم المتحير الإصغاء إلى المؤلف دون غيره والرد عليها بأن مدعيها أولىٰ بها ٩٢

- قلب السؤال على الخصم وإقامة الحجة ٩٣
- مثال مفحم في الرد علىٰ دعوى النصِّيَّة على الإمام ٩٣
- بيان الجواب علىٰ هٰذا القلب ٩٤
- الكتب التي ردّ بها الإمام الغزاليّ على الباطنية ٩٥
- بيان سفه الباطنية ٩٥
- اعتماد الباطنية علىٰ أركِّ مذاهب الفلسفة دليل علىٰ سفه معتقدهم ٩٦
- من عرف حقيقتهم نفض اليد عنهم ٩٦
القول في طرق الصوفية ٩٨
- التصوف علم وعمل ٩٨
- اطلاع الإمام الغزالي علىٰ كنه مقاصد الصوفية ٩٨
- لا تدرك حقيقة التصوف إلا بالذوق لا بمجرد التكلم ٩٨
- ثلاثة أصول من الإيمان رسخت في نفس الإمام الغزالي بما معه من العلم ٩٩
- سعادة الآخرة بالتقوىٰ وتهذيب النفس ١٠٠
- بدء محاسبة النفس وظهور خفايا مخيفة ١٠٠
- صراع شهوات الدنيا مع منادي الإيمان ١٠١
- مدة هٰذا الصراع وعاقبته ١٠٢
- حسم الأمر بالالتجاء لصاحب الأمر ١٠٢
- العزم على السفر إلى الشام ١٠٣

- اختلاف التأويلات والتهم بسبب إعراض الإمام الغزالي عما هو فيه ١٠٣
- مفارقة بغداد والذهاب إلى الشام ١٠٣
- بداية المجاهدات النفسية ١٠٤
- الارتحال إلى القدس الشريف ١٠٤
- الحنين للحج وزيارة الرسول ﷺ ١٠٤
- المعاودة إلى الوطن مع الخلوة وتصفية القلب ١٠٥
- مهمات الحياة تشوش صفوة الخلوة ١٠٥
- إدراك المؤلف بأن طريق الصوفية هي أحسن الطرق ١٠٥
- العقل والحكمة والعلم تقر بفضل الصوفية ١٠٦
- مدح الإمام الغزالي لطريقة التصوف ومراتبها وبيان سبب فضلها ١٠٦
- ذكر شيء مما أفصح عنه اللسان من مقامات الصوفية ... ١٠٦
- من لم يذق لم يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ١٠٧
- تبتل النبي ﷺ بحراء دليل الانقطاع إلى الله تعالىٰ ١٠٧
- الدرجات الثلاث وما وراءها هو عين الجهل ١٠٨
القول في حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها ١١٠
- خلقت فطرة الإنسان خالية ساذجة ١١٠
- أطوار تعلم الإنسان ١١٠
- أولاً : بالحواس ١١٠

ـ ثانياً : بالتمييز ١١٠
ـ ثالثاً : بالعقل ١١١
ـ رابعاً : طور ما وراء العقل ١١١
ـ إباء مدركات النبوة عين الجهل والاستدلال على ذلك ... ١١١
ـ النوم أنموذج من خاصيات النبوة ١١٢
ـ إدراك العقل دليل على وجود النبوة ١١٢
ـ صور الشك في النبوة وعلاجها ١١٢
ـ بعضٌ من خاصيات النبوة لا يُدرك إلا بالذوق ١١٣
ـ الشك في حقيقة شخص يزول بمعرفة أحواله ١١٤
ـ إكثار النظر في القرآن والأخبار يورثك اليقين بنبوته ﷺ ١١٤
ـ حصول العلم الضروري بتكرر التجارب السابقة ١١٥
ـ حصول الذوق لا يكون إلا بطريق الصوفية ١١٦
القول في سبب معاودة نشر العلم بعد الإعراض عنه ١١٧
ـ خُلق الإنسان من بدنٍ وقلب وهو محل معرفة الله تعالى ١١٧
ـ صحة القلب وسقمه وسلامته وهلاكه ١١٧
ـ علاج القلب بأدوية العبادات أحسن الدواء ١١٧
ـ تركيب أدوية القلوب متفاوت النوع والمقدار ١١٨
ـ استنباط حكم العبادات بالعقل حمق ظاهر ١١٨
ـ النوافل والسنن متممات لآثار أركان العبادات ١١٩
ـ فائدة العقل : أنه سلَّمنا لأطباء القلوب ١١٩

- أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بالنبوة ١١٩
- كيفية استنباط هٰذه الأسباب ١٢٠
- شبهة الاحتجاج بمخالفة العلماء للشرع ١٢٠
- شبهة ادعاء الترقي عن العبادة ١٢١
- شبهة أهل الإباحة وخدع أهل التعليم ١٢١
- منتهىٰ إيمان الفلاسفة الإلـٰهيين ١٢١
- ردُّ المؤلف علىٰ بعض شبه الفلاسفة ١٢٢
- المؤلف هو الطبيب عند عموم الداء ومرض الأطباء ١٢٣
- تحرك النفس لترك العزلة ١٢٣
- إيثار النفس للعزلة ١٢٤
- إلزام السلطان للمؤلف بالرد على الأباطيل ١٢٤
- الإمام حجة الإسلام مجدد المئة الخامسة ١٢٥
- تاريخ الخروج ومدة العزلة وما بعدها ١٢٦
- الخروج من الخلوة لم يكن يخطر ببال الإمام الغزالي لولا إرادة الله تعالىٰ ١٢٦
- اختلاف نية نشر العلم ما قبل العزلة وما بعدها ١٢٦
- تفويض الأمر لله فيما نواه من الإخلاص ١٢٧
- علاج أسباب ضعف الإيمان ١٢٧
- علاج السبب الأول ممن ادعى الحيرة ١٢٧
- علاج السبب الثاني مما توهمه أهل الإباحة ١٢٧

- علاج السبب الثالث ممن أنكر النبوة بسبب الفلسفة ١٢٨
- ينبغي أن يكون البرهان علىٰ وفق علم الشخص ١٢٨
- اعتقاد الحكمة دون النبوة كفر بها ١٢٨
- حقيقة الإيمان بالنبوة ١٢٨
- مثالٌ لا يصدقه إلا من جرَّبه ١٢٩
- مثال آخر حجة علىٰ أهل الطبيعة والفلسفة ١٣٠
- من العجب نفيهم خواص الأوضاع الشرعية واعترافهم بخواص بعض الطلسمات ١٣١
- خواص غير معقولة لا تُدرك إلا بنور النبوة ١٣١
- تصديق عبائر المنجمين أعجب العجائب ١٣٢
- من يصدق هـٰذه الترهات كيف لا يصدق قول الأنبياء ١٣٣
- تحريجة : صدَّقتُ بعضَ ما جربته فكيف أصدِّق ما لم أجرِّبه ؟! ١٣٣
- الأب الطبيب والولد المريض ١٣٣
- معرفة شفقة النبي والأب بقرائن الأحوال ١٣٤
- منهاج تحصيل العلم الضروري بصدق النبي ﷺ ١٣٥
- علاج السبب الرابع ممن ضعف إيمانه بثلاثة أمور ١٣٥
- غلبة الشهوة محمل هفوة العلماء ١٣٥
- قد يغترُّ العالم بعلمه فيترك العمل ١٣٦
- العالم الحقيقي هو القدوة ١٣٦

ـ أثر العلم الحقيقي ١٣٧

خاتمة الكتاب ١٣٧

خواتيم النسخ الخطية ١٣٨

خاتمة العناية بهٰذا الكتاب ١٣٩

تعريف ببعض الأعلام والمصطلحات ١٤٠

أهم مصادر ومراجع التحقيق ١٥٣

محتوى الكتاب ١٦٤

* * *